

محمّد شكري



الخبز الحافي

سيرة ذاتيّة روائيّة

١٩٣٥ - ١٩٥٦



للمؤلف

- مجنون الورد (مجموعة قصصية)
- السوق الداخل (رواية)
- المدينة المضادة (مجموعة قصصية)
- استرناكوس العظيم أو موت العبقري (مسرحية)
- الشطار (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)

كلمة

صباح الخير أيها اللّيليون،

صباح الخير أيها النّهاريون،

صباح الخير يا طنجة المُنْغَرِسَة في زمن زئبقي.

ها أنذا أعود لأَجُوس، كالسائر نائماً، عبر الأَزقَّة والذكريات، عَبْرَ مَا خَطّطْتُه عن «حياتي» الماضية - الحاضرة... كلمات واسْتِيهامَات ونُدُوب لا يُلْئِمُها القَوْل.

أين عمري من هذا النَّسْج الكلامي؟

لكن عبير الأماسي والليالي المكتظّة بالتَّوجُّس واندفاع المغامرة يَتَسلَّل إلى داخلتي لِيُعيد رماد الجمرات غلالةً شفَّافة آسرة...

منذ سنتَيْن مات «عَبْدُون فُرُوسُو». البطل الحقيقي الذي أيقظ مُخَيِّلتي وأعانَني على تحمّل القهر والحرمان وعنف الصراع الجسدي... مات قبل أن أنشر قصة «الخيمة» التي استَوْحَيْتُها من حضوره وتدفّقه وشغفه بالحياة. أنتظر أن يُفْرَجَ عن الأدب الذي لا يَجْتَرُّ ولا يُراوغ: مثل هذه الصفحات عن سيرتي الذاتية، كتبتها منذ عشر سنوات ونشرت ترجمتها بالانجليزية والفرنسية والإسبانية قبل أن تعرف طريقها إلى القراء في شكلها الأصلي العربي.

لقد علمتني الحياة أن أنتظر. أن أعِيَ لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما اسْتَحْصَدْتُه: قُلْ كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف، حتماً، طريقها. لا يَهُمُّ ما ستؤول إليه. الأهم هو أن تُشعل عاطفة أو حزناً أو نَزْوَة غافية.. أن تُشعل لهيباً في المناطق اليباب المَوَات.

فيا أيها الليليون والنهاريون، أيها المتشائمون والمتفائلون، أيها المتمردون، أيها المراهقون، أيها «العقلاء»...: لا تنسوا أن «لعبة الزمن» أقوَى منا، لعبة مُميتة هي، لا يمكن أن نواجهها إلاّ بأن نعيش الموتَ السابق لِمَوتنا، لإماتَتِنَا: أن نرقص على حبال المخاطرة نُشداناً للحياة.

أقول: يُخرج الحيّ من الميّت.

يخرج الحيّ من النّتِن ومن المتَحلِّل. يُخرجه من المُتّخم والمنهار...

يُخرجه من بطون الجائعين ومن صُلْبِ المتعيِّشين على الخبز الحافي».

م. ش.

طنجة ١٧/٥/١٩٨٢

١

أبكي موت خالي والأطفال من حولي. يبكي بعضهم معي. لم أعد أبكي فقط عندما يضربني أحد أو حين أفقد شيئاً. أرى الناس أيضاً يبكون. المجاعة في الريف. القحط والحرب.

ذات مساء لم أستطع أن أكف عن البكاء. الجوع يؤلمني. أمص وأمص أصابعي. أتقيأ ولا يخرج من فمي غير خيوط من اللعاب. أمي تقول لي بين لحظة وأخرى:

ـ أسكت، سنهاجر إلى طنجة. هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما نبلغ طنجة. الناس هناك يأكلون حتّى يشبعوا.

أخي عبد القادر لا يبكي. أمي تقول:

ـ خم أو ماش (أنظر أخاك) نتا ويتروشا (أنه لا يبكي). إشِكْ ثْتروذْ (وأنت تبكي).

أنظر إلى سحنته الشاحبة وعينيه الغائرتين فأكف عن البكاء. بعد لحظات أنسى الصبر الذي أستمده منه.

دخل أبي. وجدني أبكي على الخبز. أخذ يركلني ويلكمني:

ـ أسكت، أسكت، أسكت، ستأكل قلب أمك يا ابن الزنا.

رفعني في الهواء، خبطني على الأرض. ركلني حتّى تعبت رجلاه وتبلل سروالي.

في طريق هجرتنا، مشياً على الأقدام، رأينا جثث المواشي تُحَوِّمُ حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصديد.

في الليل يُسْمَعُ عواء الثعالب قرب الخيمة التي ننصبها حيثما يوقفنا التعب والجوع. الناس، أحياناً، يدفنون موتاهم حيث يسقطون.

أخي يسعل ويسعل. سألت أمي خائفاً:

ـ أهو أيضاً سيموت؟

ـ كلا. من قال لك أنه سيموت؟

ـ خالي مات.

ـ أخوك لن يموت. هو فقط مريض.

في طنجة لم أر الخبز الكثير الذي وعدتني به أمي. الجوع أيضاً في هذه الجنة، لكنه لم يكن جوعاً قاتلاً.

حين يشتد عليّ الجوع أخرج إلى حيّ «عين قطيوط». أفتش في المزابل عن بقايا ما يُؤْكَلُ. وجدت طفلاً يقتات من المزابل مثلي. في رأسه وأطرافه بثور. حافي القدمين وثيابه مثقوبة. قال لي:

ـ مزابل المدينة أحسن من مزابل حيِّنا. زبل النصارى أحسن من زبل المسلمين[1].

(١) في تلك الأيام كان عامة الناس يسمون كل اوروبي نصرانياً، ويعتبرون كل عربي يتكلم العربية مسلماً. كلمة المسلمين هنا تعني المغاربة.

بعد هذا الاكتشاف صرت، أحياناً، أذهب أبعد من حيِّنا: وحيداً أو صحبة أطفال المزابل.

عثرت على دجاجة ميتة. ضممتها إلى صدري وركضت إلى بيتنا. أبواي في المدينة، أخي في ركن مدد، نصفه الأعلى مرفوع فوق وسادة. يتنفس بصعوبة. عيناه الكبيرتان الذابلتان ترقبان مدخل الباب. يرى الدجاجة. تتيقظ عيناه. يبتسم. يتورد وجهه النحيل. يتحرك كأنه يفيق من اغماء. يسعل فرحاً، أعثر على السكين. يسعل ويلهث. أولِّي وجهي قبلة المشرق: حيث أرى أمي تولِّي وجهها وتصلي. قلت جهراً: «بسم الله. الله أكبر». هكذا رأيت الكبار يفعلون. ذبحتها حتّى أنفصل رأسها. أنتظرت أن يسيل دمها. أدلكها لعل الدم يسيل منها. يسيل قليل قاتم من ثقب عنقها. في «الريف» رأيتهم يذبحون كبشاً. لا أدري في أية مناسبة. وضعوا طاساً تحت عنق الكبش الفائر بالدم. امتلأ الطاس وأعطوه لأمي المريضة. رأيتهم يمسكون بها في الفراش وهي تقاومهم عازفة عن شراب الدم. جعلوها تشربه بالقوة. تلوث وجهها وثيابها. تمرغت في الفراش ثم همدت وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة. لماذا لا يفور الدم الآن من عنق هذه الدجاجة كما رأيته يفور من عنق الكبش؟ شرعت أريشها. سمعت صوتها:

ـ ماذا تفعل؟ من أين سرقتها؟

ـ عثرت عليها مريضة. ذبحتها قبل أن تموت. إسألي أخي.

ـ مجنون ! (خطفتها مني غاضبة). الإنسان لا يأكل الجيفة.

أخي وأنا تبادلنا نظرات حزينة. كلانا أغمض عينيه في انتظار ما سنأكله.

أبي يعود كل مساء خائباً. نسكن في حجرة واحدة. أحياناً أنام في نفس المكان الذي أتقرفص فيه. أن أبي وحش. عندما يدخل لا حركة، لا كلمة إلّا بإذنه كما هو كل شيء لا يحدث إلّا بإذن الله كما سمعت الناس يقولون. يضرب أمي بدون سبب أعرفه. سمعته مراراً يقول لها:

ـ سأهجرك يا أبنة القحبة. دبري أمرك وحدك مع هذين الجروين.

ينشق السعوط. يتكلم وحده. يبصق على أناس وهميين. يشتمنا. يقول لأمي: «أنت قحبة بنت قحبة». يسب العالم دائماً ويجدف على الله أحياناً ثم يستغفره.

أخي يبكي، يتلوى ألماً، يبكي الخبز. يصغرني. أبكي معه. أراه يمشي إليه. الوحش يمشي إليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه. أستغيث في خيالي. وحش! مجنون! أمنعوه! يلوي اللعين عنقه بعنف. أخي يتلوى. الدم يتدفق من فمه. أهرب خارج بيتنا تاركاً إيّاه يسكت أمي باللكم والرفس. اختفيت منتظراً نهاية المعركة. لا أحد يمرّ. أصوات ذلك الليل بعيدة وقريبة مني. السماء. مصابيح الله شاهدة على جريمة أبي. الناس نائمون. مصباح الله يظهر ويختفي. شبح أمي. صوتها خفيض. تبحث عني. تنتحب. الظلام يخفيني. لماذا ليست قوية مثله؟ الرجال يضربون النساء وهن يبكين ويصرخن.

ـ محمد، محمد اينو (محمدي). أراحد (تعال). لا تخف. أراحد.

وجدت لذتي في أن أراها ولا تراني. قلت لها:

ـ أقابي ذانيتا (ها أنا هنا).

ـ أراحد.

ـ لا. أذاي ينغ (سيقتلني) أَمِشْ (مثلما) يَنْغَا (قتل) أو ما إينو (أخي).

ـ لا تخف. تعال معي. لن يقتلك. تعال. اسكت حتّى لا يسمعنا الجيران.

ينتحب وينشق السعوط. عجيب: يقتل أخي ثم يبكيه.

سهرنا ثلاثتنا ننتحب في صمت. أخي مسجى مغطى بقماش أبيض. نمت وتركتها ينتحبان.

في الصباح انتحبنا أيضاً بصمت. تلك أول مرة أذهب في جنازة. أخي منعوش في حصيرة بين ذراعي الشيخ، أبي وراءه وأنا خلفهما حافياً أعرج. يضعانه في حفرة مبللة. أرتجف وأبكي. لطخة دم متخثرة حول فمه. يختفي وراء التراب. صار ربوة صغيرة.

أنتبه الشيخ، لدى خروجنا من المقبرة، لبناني الدامية. سألني بالريفية:

ـ مانا الذم ما؟ (ما هذا الدم؟)

ـ عفسغ خ الزاج (عفست على الزجاج).

قال أبي:

ـ لا يعرف حتّى كيف يمشي. ذابو هاري(أبله).

سألني الشيخ:

ـ أكنت تحب أخاك؟

ـ كثيراً. (ما زلت منتحباً). امي كانت تحبه كثيراً. تحبه أكثر مما تحبني.

ـ من لا يحب ولده؟

تذكرت كيف لوى أبي عنق أخي. كدت أصرخ: أبي لم يكن يحبه. هو الذي قتله. نعم. قتله. قتله قتله. رأيته يقتله. هو هو قتله. قتله . رأيته يقتله. لوى عنقه. تدفق الدم من فمه. رأيته رأيته يقتله. أبي قتله قاتله الله.

لكي أخفف من كراهيتي الشديدة لأبي أخذت أبكي من جديد. كنت خائفاً من أن يقتلني كما قتل أخي. نهرني بصوت منخفض وَعيدٍ.

ـ ألن تكف عن البكاء؟

قال الشيخ:

ـ نعم، كفَى من البكاء. أخوك عند الله. هو الآن مع الملائكة.

أكره أيضاً هذا الذي دفن أخي.

يشتري كيساً من الخبز الأبيض والتبغ الرخيص. يذهب إلى مكان بعيد عن طنجة ليقايض الجنود الاسبانيين في ثكناتهم. يعود مساء حاملاً ملابس الجنود. يبيعها في السوق الكبير للعمال والفقراء المغاربة.

ذات مساء لم يعد. نمت تاركاً أمي مهمومة تنتحب. أنتظرنا ثلاثة أيام. أحياناً أنتحب معها. كنت أُؤازِرُهَا. تحبه؟ لا تحبه؟ أدركت السبب عندما قالت:

ـ ها نحن وحدنا. من سيعيننا؟ لا نعرف أحداً في هذه المدينة.

جدتك رقية، خالتك فاطمة وخالك ادريس هاجروا مِن الريف هم أيضاً إلى وهران. لا بد أن يكون العساكر الاسبانيون هم الذين قبضوا على أبيك. أنه هارب من الجندية الاسبانية.

علمنا أنهم سجنوه. وشى به جندي مغربي كان يعرفه في اسبانيا. لم يرد أبي أن يبيع له بطانية عسكرية بالثمن الذي كان يريده الجندي الواشي. هذا ما قيل لأمي.

تذهب إلى المدينة باحثة عن عمل. تعود خائبة مثلما كان أبي يعود في الأيام الأولَى من وصولنا إلى طنجة. تقضم أظافرها. تنتحب. يكتب لها المشعوذون تمائم لعل أبي يخرج من السجن وتجد هي عملاً. تصلي كثيراً وتدعو كثيراً. تشعل الشموع في أضرحة أولياء الله. تستطلع حظ مستقبلنا عند «الشوافات». لا سراح من السجن، لا عمل ولا حظ إلاّ بأمر من الله ورسوله محمد. هكذا تقول.

لماذا الله لا يعطينا حظنا مثلما يعطيه لبعض الناس؟ هكذا سألت أمي.

ـ الله هو الذي يعرف. نحن لا نعرف. لا ينبغي لنا أن نسأله عما يعرفه هو خيراً منا.

باعت أشياء من منزلنا. أرسلتني يوماً مع أطفال جيراننا لآتيها بالبقول. خفت أن يعتدوا عليّ. لم يكن لي بينهم صديق حميم أستنجد به إذا أنا تعاركت مع أكثر من واحد. أنهم يتحامون ضد الوافدين الجدد إلى المدينة. تخلفت عنهم في الطريق. تظاهرت أني سأبول. نزلت إلى المدينة. أحب حركتها. في السوق البراني[1] أكلت أوراق

(١) السوق الكبير يقابله السوق الداخلي أو الصغير، بمدينة طنجة

الكرنب، قشور البرتقال وبقايا فواكه عفنة. طفل يكبرني يطارده شرطي. بين الطفل والشرطي مسافة قصيرة. تخيلتني ذلك الطفل. ألهث معه. الناس يقولون: سيقبضه ! سيقبضه! صاح الناس: ها هو قبضه!

ارتعشت. خفت. تصورتني قبضني. دعوت الله ألا يقبضه، لكنه قبضه. شعرت بكراهية للذين تمنوا أن يقبضه. من بعيد رأيت أمرأة أجنبية تلهث وراء الذين توقفوا ليتفرجوا على الحادث. سمعتها تتكلم وحدها بلغة لا أفهم منها كلمة. قال رجل مغربي:

ـ لم يترك لها غير اذن حقيبتها في يدها.

هَوَى شرطي على مؤخرتي بهراوته. قفزت في الهواء صارخاً بالريفية: أيمانوا! أيمانوا![1] لعنت الشرطي في خيالي. شرطيان آخران يضربان الصغار ويدفعان الكبار. ضربا أيضاً بعض المغاربة البائسين الكبار.

سمعت أن رجال الأمن يضربون الناس ويقودونهم إلى السجن إذا هم قتلوا أو سرقوا أو سال دمهم في العراك.

دخلت مقبرة «بوعَرَاقِية». التقطت أغصاناً من الريحان من فوق القبور الجميلة. وضعتها على قبر أخي. رأيت هناك قبوراً كثيرة بلا ريحان، بلا بلاطات مثل قبر أخي: ربوة من التراب وحجران (مختلفان في الشكل) يشير واحد منهما إلى الرأس والآخر إلى القدمين. تأملت للقبور المنسية: تكسوها نباتات وحشية، بعضها منهار. حتىَّ هنا، في المقابر، عندهم الأغنياء والفقراء. لماذا يموت الإنسان؟ ـ لأن الله يريد

(١) أماه! أماه!

ذلك ـ هكذا أجابتني أمي. أين يذهب من يموت؟ ـ إلى الجنة أو النار.

ـ ونحن؟

ـ الى الجنة ان شاء الله.

ـ وماذا هناك؟

ـ إنك تسأل كثيراً. حتىَّ تكبر وتعرف كل شيء.

وجدت هناك البقول التي وصفتها لي أمي. رأيت ثلاثة رجال يشربون بالتناوب من زجاجة لون سائلها قاتم. ناداني أحدهم:

ـ ايه! تعال إلي هنا أيها الطفل! تعال لكي أعطي لك شيئاً. خِفْتُ وَهَرَبْتُ. أَعْطِهِ لأمك يا بن الزنا.

أثناء وجبة الغداء قالت لي:

ـ هذي البقول لذيذة.

آكل بلذة مثلها. أبلع أكثر مما أمضغ.

ـ من أين جمعتها؟

ـ من مقبرة بوعراقية.

ـ من المقبرة!

ـ نعم، من المقبرة. ماذا في ذلك؟

انفغر فمها. أضفت:

ـ زرت قبر أخي. وضعت فوق قبره بعضاً من الريحان. ربوة تراب قبره لم تعد عالية. إذا ظل قبره كما هو من التراب فسيتساوى مع الأرض ولن نستطيع أن نعثر عليه بين القبور التي تجاوره.

تركت الأكل. انقبضت ملامحها. دمعت عيناها. أضفت:

ـ هناك كثير من هذه البقول حول القبور المنسية.

ـ ما ينبت في المقابر لا يأكله الناس.

ـ لماذا؟

تأملتني بحيرة. أنا آكل بشهية. تخيلتها ستقيء. اخذت صحني. قالت بالريفية.

ـ آشْفَاشْ، أَتِشْذْ إِخْفِنِشْ (كفاك، لتأكل نفسك).

ـ لم أشبع.

ـ من أين جمعت الريحان؟

ـ من فوق بعض القبور. فوقها ريحان كثير.

قالت بصرامة:

ـ غداً ستعود إلى المقبرة وترد ريحان الناس إلى مكانه. إنها قبور الناس. حذار أن يراك أحد ترد الريحان إلى القبور. نحن أيضاً سنشتري لأخيك الريحان. سنبني له قبراً جميلاً.

بدأت تنتحب. أنا أيضاً غلبني الحزن فسالت دموعي. ضمتني إليها ونعست.

تصحبني معها إلى السوق الكبير. نشتري ركاما من خبز يابس يبيعه المتسولون تحت شجرة ضخمة قرب ضريح سيدي المخفي. تطبخه في الماء، مع قليل من الزيت والتوابل. أحياناً في الماء وحده.

ذات صباح باكر قالت:

ـ أنا سأذهب إلى السوق. سأشتري خضراً وفواكه وأبيعها. أنت ستبقَى هنا. احرس بيتنا. لا تلعب مع الأطفال وتترك بيتنا للسراق.

بيني وبين أطفال الحي فوارق تجعلني أحس أني أقل منهم رغم أن

بعضهم بائس مثلي. رأيت واحداً منهم يلتقط عظام الدجاج من المزبلة ويمصها. قال الطفل: «أصحاب هذه الدار يرمون دائماً زبلاً جيداً». يقولون عنِّي:

ـ هو ريفي. جا من بلاد الجوع والقتالة (القتلة).

ـ ماكيعرفش يتكلم العربية.

ـ الريفيون كلهم مرضَى هذا العام بمرض الجوع.

ـ حيواناتهم حتّى هي مريضة.

ـ نحن لا نأكلها. هم يأكلونها. تزيدهم مرضاً على مرض.

ـ إذا ماتت لهم بقرة أو غنمة أو عنزة كياكلوها. كياكلو حتّى الجيفة.

الطفل «الجبلي» الوافد مثل الريفي على المدينة، يشترك معه في هذا الإحتقار، لكنه لا يعيَّرُ مثل الريفي. غالباً ما يعتبرونه مغفلاً: «الريفي خداع والجبلي نيّة[1]».

يجاور سكنانا بستان صغير. شجرة إجاص كبيرة تغريني كل يوم. ذات صباح باكر ضبطني صاحب البستان أسقط له إجاصاته الكبيرة، الناضجة، بقصبة طويلة. هو يجرني وأنا أحاول باكياً أن أتخلّص منه. بلتُ في سروالي المغربي الفضفاض رغم أنه لم يضربني. قال لزوجته البشوش:

ـ ها هو البرغوث الذي يفسد لنا شجرة الإجاص. يفسد أكثر مما يأكل مثل الفأر.

(١) تستعمل هذه الكلمة عند عامة الناس بمعنى عدم الفطنة.

سألتني بلطف خفف عني خوفي:

ـ أين هي أمك يا ولدي؟

ـ ذهبت لتبيع الخضر والفواكه في السوق.

ـ كفاك من البكاء. وأبوك؟

ـ في الحبس.

ـ في الحبس؟

ـ نعم في الحبس.

ـ مسكين! لماذا هو في الحبس؟

أربكني السؤال. أعادت السؤال ملاطفة وجهي بحنان:

ـ قل لي، لماذا هو أبوك في الحبس؟

فكرت أن في الجواب الصريح مساساً بكرامة أبوي.

ـ لا أعرف. أمي هي التي تعرف.

تحاور الرجل مع زوجته وابنته التي جاءت عارية القدمين في شأن حبسي حتّى تعود أمي. رأس الفتاة ملفوف في منديل أبيض ويداها الرفيعتان البيضاوان مبللتان. أدركت أن المرأة وابنتها تشفقان عليّ، لكن الزوج، بين جد ومزاح، كما يبدو من كلامه وملامحه، يصرّ على عقابي. أدخلني حجرة قاتمة كُدِّسَتْ فيها أشياء أغلبها مكسور. قال لي مغلقاً عليَّ الباب:

ـ إيَّاك أن تبكي. سأجلدك بقضيب إذا أنت بكيت.

الحبس في حجرة. هذه أول مرة. إذن يمكن أن يتحكم في ناس من غير أن يكونوا من أسرتي. الإجاصات هي لهؤلاء الذين حبسوني الآن. لكن لماذا نهجر نحن الريف ويبقَى آخرون في بلادهم؟ يدخل أبي السجن، تبيع أمي الخضر، تاركة إياي وحدي جائعاً ويبقَى هذا الرجل مع زوجته في منزلها؟ لماذا لا نملك ما يملكه غيرنا؟

أرى من ثقب مفتاح الباب الشابة تنظف الأرض بالماء والصابون بحيوية، حافية القدمين، حاسرة ثوبها الشفاف عن فخذيها البيضاوين ونهديها العاريين الصغيرين. يهتزان، يطلان ويختفيان من خلال فتحة قميصها مثل عنقودين من العنب يتدليان. شعرها ملفوف في المنديل الأبيض الملطخ بالحنة. ملفوف مثل رأس الملفوف[1].

طرقت الباب بخوف. أراقب حركاتها. قلبي يخفق مع حركاتها خوفاً وفرحاً. التفتت نحو الباب منحنية تجفف الأرض.

ـ تعالي وافتحي هذا الباب اللعين.

ترددت للحظة. ألححتُ عليها في خيالي:

ـ أرجوك، لا تترددي، تعالي.

تركت الجفاف واستقامت. نفضت يديها من الماء، شدت على وسطها بيديها. ارتسم ألم خفيف على وجهها المورد. ها هي آتية نحو الباب. خفق قلبي. ارتعشت. فتحت وقالت برقة باسمة:

ـ ها أنا. ماذا تريد؟

تلعثمت. دمعت عيناي.

---

(١) الكرنب

ـ ستضربني أمي إذا هي عادت من السوق ولم تجدني في البيت أحرسه من اللصوص. لقد تركتني أحرسه.

خفضت رأسي خجلاً واستعطافاً. نظرت إلى فخذيها الممتلئين. أطلقت ثوبها المشدود إلى حزامها القماشي. تأملتني بإشفاق. أتطلع إليها متوسلاً. شدت بيدها على فتحة صدرها المفتوحة. ينتصب نهداها الطويلان. يَشِفُّ بياض الثوب عن حلمتيها مثل حَبَّتَيْ عِنَبٍ.

ـ هل ستطيح الإجاص بالقصبة مرة أخرى من شجرة بستاننا[1]؟

ـ أبداً. اقتليني أنت بنفسك إذا وجدتني مرة أخرى أطيح الاجاص.

ابتسمت. لم أبتسم. خرجت مسرعاً. أدركني صوتها الرقيق:

ـ آجي. جوعان؟

اختلجت ملامح وجهي. قلت باضطراب:

ـ لاج شبعان.

ألحت عليّ أن أنتظرها. أبواها غائبان عن الدار. تطلعت إلى الشجرة. امتزج حبي وكراهيتي لها. لن آكل منها بعد اليوم.

مدت لي رغيفاً يقطر بالعسل الأسود.

ـ إذا جعت فعد إلينا. (أضافت): أليس عندك حذاء؟

ـ أمي ستشتريه لي.

(١) الأصح هو هل ستطيح بالاجاص. تعمدت حذف الباء لتقريب التركيب من الدارجة كما سيرد في تراكيب أخرى.

تفحصتني باسمة وأنا ألتفت إليها مبتعداً عنها. قبل أن أختفي لوحت لي بيدها باسمة. أجبتها مبتسماً واختفيت.

أهو الرجل أقسى من المرأة؟ أتمنى لو أنها أختي. هذا المنزل والبستان لو أنهما لنا. صاحب البستان أقل قسوة من أبي. لو أنه أبي.

يتبعنا بعناد. يقترب منها ويهمس في أذنها بكلمات لا أسمعها. تبتعد عنه. نعبر إلى الرصيف الآخر ماسكة يدي. أحياناً تسحبني بشدة. يلاحقنا بعناد. يضحك. تعبس. نتوقف. يسبقنا ويبطىء سيره. نعبر من جديد إلى الرصيف الآخر. يتبعنا بعناد. أنا غاضب. سألتها:

ـ ماذا يخصه هذا الرجل؟

ـ ليس شغلك.

أنظر إليه. يبتسم يتبعنا بعناد. ماذا يريد من أمي؟ أهو يريد أن يخطفها؟ لا شك أنه خطاف. شددت على يدها بقوة.

ـ لا تمسكني من يدي هكذا. لن أهرب منك.

قلت له بغضب:

ـ امش، امش. ماذا تريد؟

اللعنة عليه. يبتسم لي ولأمي. قالت لي:

ـ قلت لك اسكت أنت. ألا تسمع؟

غضبت عليها في خيالي. أنا أدافع عنها وهي تسكتني.

التقت أمي امرأة. أخذتا تتكلمان عن أبي. الرجل العنيد يبتعد عنا. لامست المرأة شعري. انزلقت يدها الخشنة ملاطفة وجهي. تركت يد

أمي وتمسكت بجانبها. قالت المرأة:

ـ لماذا هو محمدك حزين هكذا؟

نظرت إليّ أمي لافة معصمها حول عنقي. خفَّ غضبي. قالت للمرأة:

ـ هكذا هو دائماً.

تواعدتا. قالت لي أمي:

ـ بس يد للّا لويزة (بست يد السيدة لويزا طائعاً).

بطن أمي ينتفخ. أحياناً لا تذهب إلى السوق. تقيء عدة مرات في اليوم. شاحبة. ساقاها تؤلمانها. تنتحب. ينتفخ وينتفخ بطنها. أخشى أن ينفجر. لم يعد يؤثر عليّ نحيبها. أقسو وأقسو وأحزن. نسيت اللعب. حملوني في ليلة ناعساً إلى بيت آخر. نمت مع ثلاثة أطفال. قالت لي الجارة الأرملة في الصباح.

ـ ها أنت لك الآن أخت. كن لطيفاً معها.

تزوره في السجن مرة في الأسبوع. تعود أحياناً منتحبة. بدأت أدرك أن النساء يبكين أكثر من الرجال. يبكين ويكففن عن البكاء مثل الأطفال. أحياناً يحزن حين يفكر الواحد أنهن سيفرحن ويفرحن حين يفكر الواحد أنهن سيحزن. متَى يحزن ومتَى يفرحن؟ رأيت أمي مرة تبكي باسمة. أهي حمقاء؟

أبقَى في الدار أحرس أختي أرحيمو. أعرف كيف أضاحكها، لكني لا أعرف كيف أسكتها عن البكاء. أضيق فأخرج. أتركها تبكي وتعارك نفسها بأطرافها المعوجة مثل سلحفاة مقلوبة على ظهرها. حين

أعود أجدها نائمة أو باسمة. غالباً نائمة. الذباب يقفز على وجهها الذي نمشته عضات الناموس. في الليل الناموس وفي النهار الذباب.

أختي تنمو. أمي يقل بكاؤها وتذمرها. أنا أزداد شراسة، مع أمي أو مع أطفال الحي. إذا انهزمت معها أو معهم أكسر الأشياء أو أسقط على الأرض صارخاً وأعارك نفسي باكياً شاتماً إياها أو الأطفال.

سألتها:

ـ هل المرأة أيضاً يمكن أن تدخل السجن؟

ـ لماذا؟

ـ إنني أسأل.

ـ نعم. هي أيضاً إذا فعلت شيئاً قبيحا مع الناس.

بدأت تأخذنا معها إلى السوق. أختي ترضع من صدرها وأنا، في معظم الأحيان، أبحث عن غذائي بعيداً عنهما في السوق أو في أزقة المدينة القديمة. أستعطي وأسرق. أقول لها حين تلومني عن غيابي:

ـ سوف أهجر هذا البيت القذر. لن أعود إليه أبداً.

ـ أنت هكذا إذن يا هذا الخنفس. أنت هكذا إذن من الآن. ماذا أقول عنك عندما تكبر..؟

ذات صباح فاجأنا في السوق الكبير مصحوباً بجارة لتدله عن مكان أمي. انتحبت أمي في السوق وفي الدار. لماذا تنتحب من أجله؟ إنه قاس وشرير. في تلك الليلة غلبني النوم قبل المعتاد وتركتهما يتشاكيان.

في الصباح لم تذهب إلى السوق. ذهبت إلى الحمام العمومي.

تـزينت وسـوكت فمهـا وكحلت عينيهـا. رأيتهـا مسرورة في ذلـك الصباح. هكـذا إذن. حـين خـرج أبي رأيتهـا تنتحب رغم زينتهـا. فكرت: لم أر امرأة بكاءة مثلها حتّى الآن. سألتها عما أبكاها. أفهمتني أن أبي خـرج ليفتش عن الجندي الـواشي ليتقاتـلا. فـرحت. أتمنّى أن يعثر أبي على ذلك الجندي الواشي ويقتله حتّى يطول غيابه مرة أخرى. أن يقتل أحدهما الآخر. هذا ما أتمناه. أحب غيابه حيا أو ميتا.

عاد حزيناً في المساء. فاحت منه رائحة مخمورة. سمعت أمي تقول له:

ـ شربت، أليس كذلك؟

دمدم بكلمات واسترخَى حزيناً ومتعبا. هو حـزين لأنه لم يعـثر على غريمه وأنا حزين لأنه عاد. سمعتهما يتحدثان عن رحيلنا إلى تطوان. لم تكن لنا غير حجرة واحدة. تركتهما يتحدثان بحزن ونمت.

في الليل أيقظتني مثـانتي الممتلئة. قبـلات تصفق. لهاث يتـلاحق. همسـات حب. إنهما يحبان بعضهـما. اللعنة عـلى حبهـما. لحم يصفق. تفو؟ إنها تكذب. لن أصدقها بعد اليوم.

ـ فمك.

ـ ها أنا. ليس بعنف. ليس هكذا. انتظر.

ماذا يفعلان؟

ـ أقول لك هكذا.

سأهبط لأنام على الأرض.

يصفعها. ماذا يفعلان؟

ـ بنت الزناء.

ـ كلا. كلا. تؤلمني (آذان اينو). مصاريني. هكذا. هكذا أحسن.

لا. لا. ليس هكذا. نعم هكذا.

لا بـد أن يكونـا مصـابـين بـالحمَّى. لهـاث. قبـلات. تـأوهـات. لهاث. قبلات. لهاث. قبلات. تأوهات. يعضان بعضهما. يـأكلان بعضهما يلعقان دمهما...

ـ م م م.....!

يطعنها. تـأوه طويـل خفيض. شهيق. قتلها. أحس مثانتي تفرغ. السائل الساخن يندفق بلذة بين فخذي.

قبـل رحيلنا بيـوم رأيت الفتـاة التي حـررتني من الحبس وأعـطتني الخبـز المعسل. أخـبرتها بـرحيلنا إلى تـطوان. أخذتني معهـا إلى منزلها ماسكة إياي من يدي. أكلت الخبز الأسود بـالعسل الـدافىء والزبـد. أعطتني تفاحة كبيرة ذات حمرة طفيفة. ملأت جيوبي باللوز. غسلت لي وجهي وأطـرافي. كنت أخـاهـا الأصغـر؟! إبنهـا؟ مشـطت شعـري المنفوش. قصّت لي منه ويدها الملساء والدافئة تلامس وجهي ورأسي. عــطرتني. شمتني. أرتني وجهي في مـرآة صغـيرة ذات إطـار فضي. تأملت وجهها أكثر مما تأملت وجهي. أمسكته بين يديها كما تعـودت أنا أن أمسك عصفوراً حتّى لا أوله. تارة تضغط بلطف عـلى وجهي وتارة تهدهده. ودعتني بالقبلات على خديّ. باست فمي. فكرت فيهـا مثل أخت لم تلدها أمي.

في يوم رحيلنا تذكرت قبر أخي. سيظل قبره بلا سقي، بلا ريحان، بلا بناء. قـبر أخي سيضيع كـما تضيع الأشيـاء الصغيرة وسط الأشيـاء الكبيرة.

٢

عثرنا، في حيّ عين خباز، على مسكن في جوار بستان. حجرة واحدة ومرحاض خارج الحجرة.

عادت أمي تبيع الخضر والفواكه في حيّ «الطرانكات». أبي يستلذ البطالة في ساحة «الفدان» مع المغاربة معطوبي الحرب الأهلية الاسبانية. كان بعضهم يفخر بها لأنها أتاحت له أن يغامر وأن تكون له ذكريات عن المعارك التي خاضها منتصراً أو مهزوماً. وكان الكاوديو يُسَمَّى بينهم الحاج فرانكو.

أنا أتسخر لجيراننا الاسبانيين. أختي ارحيمو تتكور على الأرض وتحاول أن تستوي ماشية. أضاحكها وألاعبها، لكن حين توسخ ثيابها بالرائحة الكريهة أتركها وأهرب بعيداً حتّى تعود أمي من السوق. أحياناً يغيب أبي يوماً أو يومين. حين يعود يتشاجران. غالباً ما كان يدميها. لكنني في الليل أسمعهما في الفراش يتضاحكان ويتأوهان بلذة. بدأت أعرف ما كان يفعلان. إنهما ينامان عاريين ويتعانقان. هذا ما يصالحهما إذن. عندما أكبر ستكون لي امرأة. سأخاصمها في النهار بالضرب والشتم وأصالحها في الليل بالعري والعناق. أنها لعبة جميلة هذه ومسلية بين الرجل والمرأة.

عثر لي أبي على عمل في مقهى شعبي في نفس الحي. صاحب

المقهى مبتورة يده اليسرى. قدمني إليه أبي:

ـ ها هو ذا ابني. إذا اعتدى عليه احد السكارى أو الحشاشين بما لا يليق بـه فسوف ازهق لـه روحه. انت تعـرفنا نحن الـريفيين. اننـا لا نصبر كثيراً.

ـ كن هاني يا السي حدو. ماكاينشي اللي يمسو.

أعمل من السادسة صباحـاً حتّى ما بعـد منتصف الليل. كـل شهر يجيء أبي عند صاحب المقهَى. يقدم له كـأس شاي ثم يعـطيه ثـلاثين بسيطة عن عملي. يناديني مخدومي لكي أتقدم أمام أبي وأبوس له يده. يقول لي:

ـ لقد قبضت ثمن عملك. الله يرضي عليك.

لم يكن يعطيني شيئاً من الثلاثين بسيطة. في اليوم الـذي يقبض فيه أجـرتي يغيب يومـاً أو يومـين. أحيانـاً يعـود ثمـلا. أسمـع أمي تلفظ كلمات القحـاب والسكارى. أنـه يستغلنـا أنا وأمي. صـاحب المقهَى يستغلني أيضـاً لأن هناك غِلْمَـانَ مقـاهي يتقـاضـون أكـثر من راتبي. سأسرق كل من يستغلني حتّى ولـو كان أبي وأمي. هكـذا صرت أعتبر السرقة حلالاً مع أولاد الحرام.

للمقهَى زبنـاؤه النهاريـون وزبناؤه الليليـون. في أيام العـطل يلتقي النهاريون والليليون. يتحدثون عن حياة النهار والليل.

أدخن الكيف والسجائر في الخفاء. حين أتسخر لأحد زبنـاء المقهَى يعـطيني «سِبْسيـاً» من الكيف أو كـأس خمـر أو قـرصـاً من معجـون الحشيش. تقيأت هلامـاً أصفر أخضر عـدة مرات. مـرضت. في أيام المرض بدت لي الحيـاة غريبـة. المرض يعمق الـوحدة. الإنسـان يحب نفسـه أكثر في الـوحدة. أدركت أني لست سـوَى أنا. وحـدي أراني في

مرآة نفسي. العالم يبدو لي مرآة كبـيرة مكسرة وصدئـة أرَى فيها وجهي مشوهاً.

رواد المقهَى يشجعونني على تدخين الكيف وأكل معجون الحشيش. قـال لي أحـدهم: «القيء لا يحـدث إلا في المـرة الأولَى.» صـدق الحشـاش. لم أعد أتقيـأ وأمـرض. شربت نبيـذاً لأول مـرة. تقيـأت. مرضت. قالوا لي أيضاً: «هذا لا يحدث إلا في المرة الأولَى.» أنهم على حق هؤلاء الحشاشون والسكارى.

لم يكن صـاحب المقهَى يعترض عـلى سلوكي. أدركت أن ما يهمـه هو ما يربحه من المال. هو أيضاً يسكر ويتحشش. كنت أفكر أحياناً: أمن أجل هذا يولد الإنسـان ويعيش؟ أوه! كلا. هنـاك الجنة والنـار، كما قالت لي أمي.

أحياناً أنام في المقهَى فوق المقاعد. أحياناً أنـام في المخبزة الاسبـانية المجاورة للمقهَى. ذات ليلة رأيتهم يمزحون: أمسك خمسـة أو ستة من الخبازين بالخباز اليزيدي وطرحوه على الأرض. كمموا له فمـه بخرقـة من القماش حتّى لا يعض. أنزل واحد من رفاقه سرواله وحـك باستِه وعضوه التناسلي وخصيتيه أنف اليزيدي. أهكذا يمزح الناس؟ خرجت من المخبزة خائفـاً أن يحدث لي مثلما حـدث لليزيـدي أو أكثر. فضلت الخـوف في طريقي إلى منـزلنا. كنت أغـامـر. لقـد سمعت كثيـراً عن الإغتصـابـات الجنسيـة التي تحـدث للفتيـات والصبيـان. الـطريق إلى سكنانا مظلم، مخيف في الليل.

مسكن صاحب المقهَى ملاصق لمقهاه. أحياناً يبدأ سكـره في المقهَى وينهيه في بورديل المدينـة حتّى اليوم التـالي كما يقـول عنه رواد المقهَى.

أحياناً يتغيب أكثر من يوم في بورديل [1] المدينة أو في بورديلات مدن أخرى.

في غيابه أضاعف سرقتي له. إن معلم الوجاق يغلبه النعاس في الليل والنهار. كنت أقبض الفلوس من الرواد وأضعها في صندوق خشبي فوق الحاجز. حين يفيق المعلم يأخذ الفلوس ولا يحاسبني. بدأت أدخل داره متى أشاء. آكل مع أولاده. أنام معهم في حجرة واحدة عندما لا يضطرني السكر إلى النوم في المقهى. زوجته تتزين أكثر من مرة في الأسبوع بالقفطان والحلي ولا تبيت في المنزل أو تعود بعد منتصف الليل. امرأة سمينة وقمحية البشرة. وجهها مستدير وصدرها كبير وأردافها أبرز ما في جسمها. حين تكون لابسة ثوباً خفيفاً جالسة وتنهض تبدو كما لو أنها خرجت من الحمام. إنها امرأة تعرق كثيراً. أتأمل جسدها وهي تبتسم لي. لم تنهرني قط. رأيته يضرب زوجته وأولاده مثل أبي، لكنه أقل قسوة. كثيراً ما رأيته يقبل أولاده وهم يلاعبونه ويكلم زوجته بهدوء ومرح. أبي يصفع ويصرخ مثل حيوان.

يمضي، أحياناً، أكثر من أسبوع لا أزور خلاله أبويَّ. استرحت من خلافاتها. هزلت. لم أكن أنام كثيراً. مرضت. بطن أمي ينتفخ. هذه المرة لن أبقى في الدار لأحرس الطفل الذي سيخرج من بطنها. لقد كبرت وصرت أعمل. تخيلت الصراخ ينمو في بطنها. ذات يوم سأسمع: واع ع ع ع ع ع ع ع . . !

تركت عملي في المقهى. أثناء نقاهتي تعلمت كيف أصطاد الطيور في البستان. صنعت أرجوحة بحبل قوي ربطته إلى فرع شجرة التين. التأرجح يلذذني. قضيبي الصغير ينتصب عندما أتأرجح. تعلمت

(١) بيت الدعارة.

السباحة في الصهريج الذي تُسْقَى بمائه الغرسة. أستيقظ باكراً لأسرق الفواكه من الأشجار. الدجاج وبيضه وأفراخ الحمام. كل مفارخ الغرسة أعرفها. أبيع المحصول لأصحاب دكاكين الحي. رغبتي الجنسية تتهيج كل يوم. الدجاجة، العنزة، الكلبة، العجلة. . . تلك كانت إناثي. الكلبة أخرق لها الغربال المثقوب في رأسها، أربط العجلة، ثم من يخاف العنزة والدجاجة؟

يؤلمني صدري. سألت عن ذلك الكبار. قيل لي أنه البلوغ. الألم في الحلمتين المتورمتين عند الانتصاب. أستمني على المحرم والحلال من الأجسام. حين أقذف سائلاً مثل المخاط أحس كأنه عضوي قد جرح من الداخل.

صعدت إلى شجرة التين في ذلك الصباح. أرى أسية من خلال الأغصان. تمشي مختالة على مهل. تدنو من الصهريج. إذا اكتشفتني فقد تخبر أباها عني. هو أيضاً ما رأيته قط يبتسم مثل أبي. اللعنة على كل الآباء إذا كانوا مثل أبي. تلتفت بعيداً وقريباً. وتتوقف. تصغي إلى الأصوات. عيناها سوداوان كبيرتان ويقظتان. تخيف. لو لم أكن أعرفها لظننتها جنية. تقترب من الصهريج بخطوة واثقة وأخرى بشك. أهي تخاف؟ كم تلتفت! تتمهل في المشي كأنها تمشي على البيض تخاف أن تكسره. تقف على عتبة درجات السلم كأنها الوحيدة في هذا العالم. تفك حزام منامتها. لم أعد أرى سوى جسمها. تنفتح المنامة الوردية مثل جناحي طائر يريد أن يطير ولا يطير. ينبثق بياض أعلى جسمها إلى ردفيها. يدوخ رأسي بلذة. أنبهر. تسقط التينة من يدي. أبلع التي في فمي. سلَّتي تميل. يسقط نصف محتواها. يبزغ قرص الشمس القرمزي يحفه النور مثل بيضة مكسورة في صحن أزرق. تسبح الكائنات. يصفر عصفور والحمام يهدل وديك يصيح

ونهيق حمار يغطي كل الأصوات التي لا أراها. لا أرى سوى تلك التي... تتعرى. أسية تتعرى. أتخيل الوجود كله يعرى: الأشجار تسقط أوراقها، الناس يعرون، الحيوانات يسقط عنها زغبها وشعرها. تنزلق المنامة على جسدها. تعرت. أسية تعرت. ابنة صاحب البستان تعرت. ما أضوأ ما في جسمها! ما أسود ما في جسمها! صدرها ملآن. ثمرتاها منتصبتان. زغب أسفل سرتها أسود مخيف وجميل. يؤلمني انتصابي. تخطو خطوتين فوق عتبة الصهريج. هياجي يشتد. شعرها الأسود يغطيها من الوراء. تنحني. على كتفيها ينسدل سالفها إلى الأمام. تعرت من الوراء. ينفتح لحمها الأبيض من الوراء عن ظلمتها الخفيفة. يتعسل فمي. يتدغدغ. يؤلمني جسمي بلذة. رعشة حلوة وقذف لذيذ أرخياني حالماً مستنداً على فرع الشجرة. مِلتُ وكدت أهوي. متمهلة تهبط درجات السلم اللزجة. تتأمل الماء. تبلل حشيش إبطيها الأسود وصدرها الأبيض المنتصب. ترش فجوة الفخذين. ترش كل جسمها وتقفز. أنزل. بحذر أمشي على أربع. أخبىء منامتها بين الأعشاب قرب الصهريج. أعود فرحاً فوق الشجرة. مبتسماً أنتظر ما سيحدث. آكل التين بفرح وشراهة. نسيت البيع والشراء في الحي. تسبح مثل سمكة. تغوص وتطفو مثل بطة النهر. مثل عروس البحر، التي سمعت عنها، تظهر وتختفي. يضج البستان بالأصوات الجميلة والقبيحة. كل شيء جميل: على بطنها، على ظهرها، على جانبيها، على رأسها وواقفة مثل زجاجة في الماء غائصة وطافية. ما أجمل أن تظن أن أحداً لا يراها!

تصعد مرتعشة. تندهش. تحمي صدرها بذراعها اليسرى وباليمنَى أسفلها. تفتش بحيرة وخوف. موتي! تلتفت هنا وهناك باضطراب. موتي! تعثر على المنامة. تلبسها هاربة. يختفي بياضها. أضحك

بجنون. الحمار من جديد ينكر كل الأصوات.

حلمت ليلاً أسية تفسخ حزامها. تطفو عارية. تنساب مثل النونة في قاع الصهريج. حلمتني أعوم معها. تحتها. على جانبينا. نقف في عناق ثم نغوص إلى قاع الصهريج لننام دون أن يقهرنا التنفس.

رأيت الطفلة مناة ترفع ثوبها وتقعي طويلاً تحت شجرة صغيرة. حرصت أن أراها ولا تراني. لماذا شيئها الوردي لا زغب له؟ شيئها الصغير يبشع إذا هي انحنت: مثلما هو الفم الذي بلا أسنان شيئها بشع. دخلت على جارتنا في دارها لأطلب منها شيئاً لأمي. وجدتها تبدل ثيابها الداخلية: بطنها بارز بشع، متهدلان ثدياها. لحمها مترهل. إذا هي أجسام النساء ليست مثل جسم أسية فإن جسم المرأة بشع، بشع، بشع!

قضيبي يدغدغني كل يوم. أهدهده بأصابعي كأني أهدهد ألم دمل أنتظر أن يتقيح. ينتصب. يمتلىء. يستوي شيئاً فشيئاً حتى يحمرّ ويعرق لاهثاً. صرت مشغولاً به وحده. أحس بألم في الخصيتين إذا لذتي لم تتم في الاستمناء. أتخيل جسم أسية: أبوسها في الخيال، أمس صدرها فتركني. تلاطفني باليد والفم.

أخبرتها بما جرى. راحت تجري ورائي. أقفز على ما يؤخرها ويعوقها عن اللحاق بي. تعثرتُ. تكورتْ فوقي. نهضت لأهرب. أمسكتني. صفعتني. بكيتُ. خجلتْ عيناها واستكانت. لاطفتني. دعوتها أن تأكل البيض المسلوق معي. كنت أحفر في الأرض حفرة وأطمر فيها بيضات ملفوفة في خرق مبللة أو ورق وأشعل فوقها النار. أكلنا البيض المسلوق والفواكه وتركتها تحلم تحت ظلال شجرة تفاح وأنا جنبها أحرس نعاسها. لا شك أنها تحلم برجل. هذا ما سمعته

عن النساء عندما يحلمن. كان لها أخ يصغرها ويصغرني. أكْلُ البيض معه أفضل والاستلقاء جنبه أكثر لذة وحرارة.

أستهلك كثيراً من علب الوقيد في ممارسة هوايتي الجديدة. أجلس على حافة الصهريج أرقب خروج النونات من جحرها. أفتل خمس أو ست وقيدات. أشعلها وأرشق بها النونات المنسابة. أظل أطارد انسياب النونة الهاربة بالشعلات حتًى تدخل جحرها. تتلطف حدة مزاجي القلق بمنظر الشعلة في الهواء وانطفائها في الماء، انسياب النونة ودخولها في جحرها خائفة. افلتتْ شعلة من يدي وسقطت ورائي. لم أبالِ بها. أشعلت أخرى. لم أنتبه للشعلة الساقطة فوق السياج. سمعت القصب يطقطق. أحاول اطفاء النار بالحجارة وكل ما عثرت عليه من أشياء. حريق. أهرب. أختبىء في الاصطبل. أصوات أعرفها وأخرى لا أعرفها تستغيث بالناس والماء. أغوص في تل من التبن مفكراً في سوء المصير. في الليل دخلت حظيرة البقر. أنهضت بقرة هولاندية. لاطَفْتُها. داعبت ضرعها. تركتني أرضع. أتسكع نهاراً في الحيّ. في الليل أنام في الاصطبل. في الليلة الثالثة وقعت في شرك أبي بمساعدة بعض غلمان الحي الذين خصص لهم مكافأة. كسر الجيران مزلاج باب بيتنا كي ينقذوني أنا وأمي. كان يضربنا معاً بحزامه العسكري. جسمي كله دام. عين أمي متورمة. ظللت أياماً لا أعرف كيف أنام. تمنيت لو أستطيع النوم في الهواء.

عدت إلى العمل في المقهى وأكل معجون الحشيش وتدخين الكيف والسكر. دخلت إلى دار صاحب المقهى. ابنته فاطمة تغسل الثياب منحنية. منحسر ثوبها من الأمام. بدت لي أكبر مما تركتها. تكبرني. نظرت إليها. قساوة أبي عليّ توقظ شهواتي نحو كل ما هو جسدي. تلتفت إليّ باسمة. ثوبها الخفيف أراه في الخيال ترفعه الريح. أسية

أجل، لكن فاطمة قريبة مني وأسهل. الأخرى صارت ذكرى عابرة. رفعت رأسها، قبضت بيديها على خصرها، تألمتْ، تمططت. فخذاها ممتلئتان عاريتان. أطلقت ثوبها على ركبتيها. دنوت منها في خيالي. أعدت انحسار ثوبها في الخيال. أشعلت النار في ثوبها. استسلمت بلذة للّهيب الذي يحرقها من الأسفل. جميل عريها من خلال شعلة النار تلك. قالت بحدة:

ـ ماذا تريد؟ أحالم أنت هذا الصباح؟

قلت بخيبة:

ـ نفد السكر في المقهى.

تأملتني. قالت بصوت قوي:

ـ ألا تعرف أين يوجد السكر؟ (أضافت لنفسها بصوت خفيض): لم يبق في الحساب إلا أنت.

نظرت إليها بخبث. قالت مستغربة:

ـ مالك اليوم؟ إنك غريب اليوم. سأقول هذا لأبي.

مضيت إلى حجرة المؤونة الصغيرة خافضاً رأسي. أخرج بالسكر. تنظر إليّ باهتمام. أختلق أسباباً كاذبة عندما أعلم أنها وحيدة في المنزل. أعريها بنار خيالي متى أشاء. هي تعودت على مجيئي الكاذب. أنا فهمت عبوسها المصطنع. تتناظر أكثر مما نتكلم. في ليلة باردة أنجذب جسمي إلى جسمها. تدفأنا ولعبنا بجسدينا. تغطينا بجسمينا. انزلقنا على بعضنا. ألامسها بلطف وفي الخيال أصفعها حتًى يصفق اللحم. وجهها تحت وجهي. يطل عليّ وجهها من فوق.

وضعت أمي صبياً. أختي ارحيمو صارت تستطيع أن تحرس أخاها عاشور. ذات مساء شربت النبيذ وتحششت في المقهَى. جلست خارج القهوة أستهوي. أتأمل نجوم السماء ونجومي حين أغمض عينيّ. نهرني مخدومي:

ـ قم واعط لذلك السيد كوب ماء.

حالماً نظرت إليه. الملعون. اطفأ نجومي.

ـ وأنت؟ ماذا تفعل أنت هنا؟ أعطه بنفسك.

صفعني مخدومي وهربت. تلك كانت آخر ليلة لي في المقهَى. سرت في الظلام وطيور الليل في رأسي. لم أخف من الأشباح: لا من الإنس ولا من الجن. في الطريق المظلم جريت وراء قط أو أرنب!

بعد أيام من عيد الأضحىَ صحبت أمي إلى النهر المجاور للبستان. غَسَلَتْ جزة الكبش وأشياء أخرى. في الليل سمعتها تقول: الله! نسيت السكين التي كنت أنظف بها الجزة. نسيتها فوق الصخرة.

لم أقل لها شيئاً. خرجت أجري نحو النهر. وصلت وعثرت على السكين. أمسكتها في يدي بحركة كأني أواجه مبارزة. نظرت نحو الضفة الأخرى. شبح قادم إلى النهر. كنت قد سمعت أن من يرى جنيّا ويغرز السكين في الأرض يبقى الجنّي محبوساً في مكانه. غرزت السكين في الأرض بقوة. عدوت وركبتاي تخذلانني. سقطت ونهضت. لم أستطع الصراخ ولا الإلتفات. أحسست أن مجرد التفاتي إلى الوراء سيقبض عليّ المسخ الذي رأيته. أتعثر وأنهض وأجري حتى وصلت إلى الدار وقلبي في حلقي.

مرضت حتَّى ظنوني سأموت. جاء إلى منزلنا شيخ يخرج العفاريت

من الأجسام. أمر الرجل أمي أن تذبح فروجاً أسود ثم يطاف بي، محمولاً، سبع مرات حول بئر حوش الدار.

بعد شفائي قصصت على رفاقي الصغار ما حدث لي. كلهم صدقوني. بعض الكبار قالوا ربما يكون الشبح الذي رأيته رجلاً بدوياً كان عائداً إلى منزله في تلك الساعة، لكن أكثرية الناس كانوا يصدقون حكايات ظهور العفاريت. إن الجنيّ هو جنديّ من جنود الله يجازون الناس بما يستحقون من خير أو شر.

عثر لي أبي على عمل آخر في معمل الآجُر بخمس وعشرين بسيطة في الأسبوع. أدفع عربة يد مشحونة بالطين أو القرميد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. إنسلخت راحتاي ودَمِيتا وَكَنِبَتا. خشن وجهي بالشمس والغبار واشتد جسمي مثل طبل.

إنتقلت إلى عمل آخر في معمل الفخار. كان عليّ كذلك أن أدفع نفس عربة اليد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. في هذه المرة كنت أنا الذي أقبض أجرتي. أعطي منها نصفها إلى أبي مقابل الأكل وغسل ثيابي والنوم في المنزل. ثرت على عربة اليد. قلت لأمي في غياب أبي:

ـ أنا لم أعد حماراً. الحمار هو الذي يظل يحمل دائماً الأثقال أو يجرها.

ـ وماذا ستعمل؟

ـ أنا أعرف ما سأفعله.

وقال لي أبي وقت الغداء.

ـ إن الأكل والنوم في الدار يكلفان مالاً. إذا لم تعمل فلا يوجد أكل ولا نوم. هل تفهم ما أقوله؟

قلت له خافضاً رأسي :

ـ نعم .

وفي خيـالي : وأنت، ماذا تعمـل؟ أليست أمي هي التي تبيع الخضر في حي الطرانكات؟

غـادرت معمل الفخـار واشتريت صنـدوقاً من مـاسح أحـذية . أطوف على المقـاهي والحانـات . ألتقط الأعقاب، أشرب ثـمالة كؤوس الخمر والمشروبات الغازية وبقايا الطعام في الصحـون الصغيرة أجمعها قبل أن ينظف النادلون الطاولات في سطيحات الحانات. الذين أمسح لهم أحذيتهم لا يروقهم عمـلي. لم أكن أتقن حرفتي، الفـرجون يسقط من يـدي عنـدما أنقله إلى اليـد الأخـرى بتلك السرعـة التي يتقنهـا المحترفون. أيضاً يضايقني حسد وسخرية الذين يتقنـون هذه الحـرفة. كثيـراً ما كنت أتضـارب معهم. تصاحبت مـع بائـع صحف، في سني تقريباً. تركت حرفـة مسح الأحـذية وصرت أبيـع صحيفة ديـاريو دي آفريكا (Diario de Africa).

٣

إنتقلنا إلى حي الطرانكـات. أعين أمي في بيـع الخضر والفواكـه. أنادي بصوت صاخب على المشترين بالإسبانية :

Vamos a tirar la casa por la ventana!

Quien llega tarde no come carne!

Debalde! Debalde vendo Hoy.

كـل مسـاء آخــذ لنفسي، دون علم أمي، النقـود لشراء معجــون الحشيش والكيف والجلوس في المقهَى والدخول إلى السينما.

إلتقيت صديقي التفرسيتي. كان حزيناً. قال :

ـ عمي مات.

ـ مسكين.

ـ قتل نفسه وزوجته وثلاثة أولاده.

ـ كيف حدث ذلك ولماذا؟

ـ قضـوا أيامـاً بدون أكـل. لم يرد هـو وزوجته أن يـطلبا من أحـد الجـيران شيئاً من القـوت. بنيَا، من الـداخل، بـابـاً آخـر من الحجر والطين وماتوا.

- يرحمهم الله.

- إشترينا نصف زجاجة من الماحيا[1] وشربناها عند حافة جبل درسة. إتفقنا أن نذهب إلى الماخور.

قالت لنا لـلّاحرودة، التي نعتبرها، نحن المراهقين، معلمة في النكاح:

- يظهر أنكما شربتما، أليس كذلك؟

- نعم، لكنك أنت جميلة ونحن نريدك.

إبتسمت وهي تفحصنا. وجهها يلمع بالمساحيق وعيناها مكحلتان. نظر إليّ رفيقي. أكدت للمرأة أننا لم نشرب كثيراً. فقط نحن مرحان ونريد أن ننعس معها كما فعل رفاقنا في الحيّ. هي تفحصنا بنظرات باسمة ونحن نخاف أن ترفضنا. قالت لنا:

- طيب، من سيبدأ الأول؟

نظرت إلى رفيقي. قال:

- أرجوك ادخل معها أنت الأول.

طلبت مني أن أدفع لها المال مقدّماً. لم أتردد. هي تبيع جسدها ونحن نشتريه. أخذت تتعرى واقفة. السيجارة في فمها. دخانها يجعل عينيها ناعستين. شفتاها شهوانيتان، حمراوان. قالت لي:

- إفتح فمك.

كنت خائفاً منها. فتحت فمي طائعاً. وضعتْ سيجارتها في فمي

(١) نوع من الخمر يصنعه اليهود من التين أو التمر.

باسمة. أدارت لي ظهرها. فككتُ لها رافعة صدرها متأملاً بشهوة الزغب الخفيف عند منبت ظهرها. تستدير وتواجهني باسمة رافعة نهديها بيديها. إستعادت سيجارتها إلى فمها باليد الأخرى. إبتسمت لها خوفاً من جسدها. فكرت: جعلتْ من فمي منفضتها.

- دخن. ألا تدخن؟

أخرجت سيجارة بحركة سريعة، مضطربة. قالت:

- إنزع ثيابك. مالك خائف؟

قضيبي منتصب. شرعت أفك أزرار بنطالي باضطراب. قلبي يخفق بعنف. أسية وفاطمة لا خوف منهما، لكن العلاقة معهما ليست إلّا انزلاقاً والتحاماً مسطحين. هذه المرأة ستتركني أدخل في لحمها كما تدخل السكين في اللحم. سأجرح لها فرجها.

أستلقتْ على الفراش. ينفتح مقصها. شيئها حليق. تذكرت مُنَاة تبول. أمسكت قضيبي في يدها منتصباً. فكرت: وإذا كان لفمها الأسفل أسنان! أدخل بين فخذيها بحذر وخوف. تضغط عليّ بساقيها من الخلف. تضمني إليها. قالت منزعجة:

- أنت لا تعرف بعد حتّى كيف تدخل في المرأة.

لم أعرف ما أقوله لها، لكنني فكرت في الكلاب التي تلتصق. شيئها ناشف. تبعدني عنها قليلاً. بَصَّقَتْ أناملها بلسانها وبزّقت فمها الأسفل.

- أدْخُل الآن...!

- ......

ـ مالك؟ أدخل أو قم من فوقي. أدخل أقل لك.

وإذا كان لفمها الأسفل أسنان!

ـ لا تخف. لن آكلك. أنت جميل. أدخل.

دخلت فيها بحذر وخوف وأنا أفكر في الكلاب التي تلتصق. غصتُ في فمها المخاطي. ينفلت فمها الزبدي. لقد تَزَبَّدَ الآن.

ـ آي آي آي! ليس هكذا. من أجل هذا أكره النكاح مع الأطفال. لا تلمسني هناك. لا شك أنك هذه أول مرة تنام فيها مع امرأة.

لم أقل لها شيئاً. أوشكتُ أن أقول لها بأنني قد لعبت بجسدي في الحي مع رفاقي. لم ترد أن تعطيني فمها. تعطيني خدها. نهداها ينفلتان مني. إنها مثل سمكة تنزلق في اليد. تنزلق لي يدي من على صدرها.

ـ آح آح! إنه لحمي يا ولد وليس حلفاء. أنت ما زلت صغيراً لكي تفعل مثل هذه الأمور كلها مع امرأة.

فاطمة أجمل من للّاحرودة التي لا تتركني ألمس نهديها. مع ذلك أعطتني فاطمة فمها وصدرها. لم يستغرق الدلك المخاطي طويلاً.

ـ هيا، إنك انتهيت. لقد أَتَى دور رفيقك.

دفعتني عنها. أنسحب وقضيبي يقطر.

ـ أووه، ليس هكذا. إنك تلوث لي الفراش. انتظر حتًى أريك كيف ينبغي لك أن تنسحب.

إنها حمقاء هذه المرأة. أليست هي التي أمرتني أن أقوم من فوقها؟

تضع منديلاً في جرحها. تدير لي ظهرها. أشتهي أيضاً مؤخرتها.

فكرت: صحيح، إنها معلمة الجماع كما قيل لنا، لكنها تشكو كثيراً.

ـ ها أنت قد نمت مع أول امرأة. ألست أنا أول امرأة تنام معها؟

إبتسمتُ وهززتُ لها رأسي.

ـ ستفكر دائماً في هذه الدخلة معي.

ما زال منتصباً.

ـ هيا، ماذا تنتظر؟ إغسل والبس بسرعة. صديقك ينتظر نوبته.

غسلته في الطشت ولبست بنطالي وهو ما زال منتصباً. يرتخي وينتصب.

سألني رفيقي التفرسيتي:

ـ كيف هي؟

ـ رائعة. بلا أسنان.

إنْدَهَشَ:

ـ ماذا؟ أليس لها أسنان؟

ـ لا أقصد أسنان فمها. إن فرجها لا يعض. إنه يقبض ويمص لكنه لا يعض. سترى بنفسك. إنه دافئ ولين.

قالت من الداخل:

ـ هيا، ادخل أنت الآخر.

فكرت: شيئها ليس جميلاً، لكن دفأه لذيذ. إنه يدفئ الجسم كله، يزيل الدوخة، لكن من الأحسن أن أدخل فيه دون أن أراه.

تعـوّدنا أن نـتردد ثلاث أو أربـع مرات في الأسبـوع لنكتشف امرأة جديدة تقبل أن ندخل معها. بعضهن يرفضن. كلهن تقريباً، يتشابهن في الفراش: «هيا، إنْتَهِ بسرعة!» كنا نعود عند اللواتي يعطينا شفاههن ونهودهن ويتركننا نفعل الحب معهن على مهل. قلت للتفرسيتي:

ـ النعاس مع امرأة بلا تقبيل الشفتين وضم النهدين باليدين ليس نعاساً كاملاً.

ـ هن لا يعطين كل شيء إلاّ للكبار. وأحياناً حتّى يضربهن الواحد.

ـ هذا صحيح. وهل نحن ما زلنا صغيرين؟ كل من ينتصب عضوه فهو رجل.

ـ هذا صحيح.

ـ هذا المساء سنذهب عند الإسبانيات.

في بورديل الإسبانيات لم تقبلنا الشابة الأولَى. قالت لنا:

ـ Uno solamente. Nada de dos.

قلت للتفرسيتي:

ـ أدخل معها أنت إذا شئت.

ـ كلّا. أما أن ندخل معها أو لا شيء.

قال:

ـ تِمْشي تَخْرَا.

ـ إنها جميلة وشابة.

ـ صحيح، لكن تمشي تخرا في ثيابها. تمشي تخرا هي وشبابها. هناك أخريات أجمل منها، سترى.

ذهبنا عند ثانية. أكبر سناً قليلاً من التي رفضتنا. أكثر هدوءً من الأخرى. تبدو طيبة وجميلة. لكن الشابة الأولَى أجمل. فكرت: تفو على الجمال المتكبر!

ـ ماذا تقول فيها؟

ـ لا يهم. لا بأس بها. المهم هو أن تقبلنا وتكون لطيفة معنا. تفو على تلك الشابة الأولَى!

سمينة قليلاً.

ـ لا يهم. سنجرب معها. بعد ذلك سنبحث عن أخريات أجمل منها.

فكرت: الجمال عذاب.

لعبنا، هذه المرة، وجه الفلس وقفاه. ربح رفيقي. سيدخل هو الأول. تردد وقال لي:

ـ محمد، أدخل أنت الأول معها. هذا أفضل. أنت تعودت أن تدخل الأول.

دخلت ونادت:

ـ أنطونيو! هات ماء وفوطة.

أطل علينا ثم اختفى. جاء بماء وفوطة. رموش عينيه مكحلة، وجهه مُجَمَّلٌ بمسحوق وردي، ثدياه بارزان، بنطاله مشدود على مؤخرته. قالت لي المرأة.

ـ ألا تعطيه شيئاً؟

أعطيته بسيطتين. أردت أن أدفع لها مقدماً الخمس عشرة بسيطة.

ـ لا. لا. فيما بعد. هل أنت ستهرب؟

غسَلَتْهُ بالماء الدافئ والصابون. ضغطت عليه من منبته إلى حشفته وفركته في يدها. المغربيات لا يغسلنه ولا يضغطنه في أيديهن. فيما بعد عرفت أنها طريقة لمعرفة هل العضو سليم أم مريض! لم أستطع أن أمنع انتصابه في يدها. إبتسمنا. قالت باسمة:

ـ إيريس فويرتي، هي! Eres Fuerte! Eh!

تعرّت من كل ثيابها. شيئها ليس حليقاً. المغربيات يحلقنه. انتظرت أن تغتسل هي أيضاً. لم تفعل. تمددتْ على الفراش رافعة ساقيها، ضامة فخذيها. لماذا يسترن شيئهن؟ شعرها نابت في شكل لسان حتّى بلغ سرتها. أهي لم تغتسل لأنها تعرف أنها جد نظيفة؟ ثدياها صارا الآن مثل خبزتين صغيرتين مدورتين. لم تقبض عليّ بمقصها. تمددت مثل تونة كبيرة. سمعت أن النبي يونس ابتلعه الحوت. ثنت ساقها تحت الساق الأخرى. نظرت إلى انفراج ساقيها. وضع غريب عليّ. تركتني أقبلها في فمها بلطف. فمها حلو وحار ورائحة عطر تبعث من خلف أذنيها. تألمتْ:

ـ آي آي! لحظة. سُلَّ شيئك. سأغير وضعي. هذا الوضع يبدو أنه لا يلائمك. ربما يلائمك هذا.

غيرتْ وضعها. خفت ألا تتركني أدخل فيها مرة أخرى. أعجبني الوضعان معاً. تركتني ألمس نهديها برفق. حينما ملأت فمي بنهدها

ولساني يدغدغ حلمتها قاومت رغبة قوية حتّى لا أعضها. لم تكن مستعجلة. ضايقني زغبها في حشفته.

سألني رفيقي:

ـ كيف هي؟

ـ أحسن من كل الأخريات. تعطي جسمها كله. نظيفة ومعطرة. ليست مستعجلة مِثْلَ الأخريات.

ـ صحيح؟

ـ سترى بنفسك. أتمنّى أن أموت فوق جسد امرأة مثلها.

في الليل حلَمْتُنِي أرضع نهد امرأة. حليبها يفور في وجهي حتّى كدت أختنقُ.

مات أخي عاشور. لم أحزن على موته. كنت أسمعه يصرخ وأراه يحبو، لكني لم أكن أفكر فيه. ملذات جسدي ألهتني. أختي أرحيمو أيضاً أراها تكبر وتتكلم، لكني لم أكن أهتم بها. كنت غارقاً في همومي وتشردي، حالما بملذات العالم. أنام في الدروب أكثر مما أنام في المنزل. سلفتْ لي أمي مبلغاً من المال. بدأنا، أنا والتفرسيتي، نشتري الخضر والفواكه من المخازن ونبيعها في حي الطرانكات. في موسم العنب نشتري منه عدداً من الصناديق ونبيعها في أسواق البوادي.

لم تكن تدوم طويلاً هذه التجارة. كنا ننفق كل ما نربحه في شرب الخمر والنوم مع نساء ماخور حي «السانية». في فصل الشتاء نتحسر كثيراً على إسرافنا. كنا نسرق أو نحمل حقائب المسافرين في المحطات.

بدأ أبي يستعد للرحيل إلى وهران ليزور إخوته الذين هاجروا من الريف أيام المجاعة وظلوا هناك.

كانت أختي ارحيمو قد بدأت تجلس مع أمي في الدكان لتحرس البضاعة من اللصوص الصغار. ذات مساء شتمها وصفعها بطل حينا كوميرو. كنت أدخن الكيف في مقهى السي «موحند» عندما جاءني رفيق ريفي بالخبر:

ـ كوميرو أهان أختك وصفعها. حاول أن يسرق لها رأس كرنب. أمك ليست في الدكان. لا بد أن تنتقم لأختك.

وجدت أختي تبكي. قال لي أصحابي الذين تجمعوا حولي:

ـ هو الآن في قهوة باب «التوت».

ـ لماذا لا تعارك ذلك القواد؟ إنك ستغلبه. نحن نعرفك في العراك. لقد غلبه بوراس بضربة واحدة من رأسه.

ـ نعم، عاركه. إننا معك. لن يحميه أحد ضدك. من يعرف في حينا الضرب بشفرة الحلاقة مثلك؟

إشتريت ثلاث شفرات حلاقة ووزعتها في جيوبي. ذهب أحد الرفاق ليخبر كوميرو بالمبارزة في السوق الخارجي. وجدني هناك أنتظره. كان معي أربعة رفاق. جاء هو محمياً باثنين. قال لي:

ـ هل تريد أنت أيضاً أن أحك لك الفليفلة في إستك؟

بصقت عليه وبدأنا نتضارب بالأيدي. كان أقوى. يضرب بكل ثقل جسمه. كنت أمامه مثل ريشة. أراوغه حتّى لا يقبض عليّ بيديه. هذه كانت حيلتي مع كل الذين تضاربت معهم. رفاقنا يراقبوننا

ويشجعوننا ولا أحد يتحامَى. أصابتني بعض لكماته. إبتعدت عنه فاقداً توازني. أخرجت شفرة وبدأت أرقص حوله. بدأ يلهث. أفلحت له بضربات سريعة وجهه وذراعيه وصدره. تركته يصرخ، يتلوى ألماً وهربت محمياً بأصدقائي.

في تلك الليلة قبض عليّ أبي بمساعدة بعض رفاق الحي الذين كانوا ضدي. في الواحدة صباحاً ركبنا الحافلة الذاهبة إلى الناظور.

توقفنا في «كتامة» لنشرب القهوة السوداء في مقهى شعبي. كان صباحاً بارداً. تلك أول مرة أدوس فيها الثلج. أندافه على أشجار الصنوبر. الرحلة شاقة. وجوه الناس عبوسة. الفقر في ثيابهم وفي مساكنهم المبنية بالحجر والطوب. الأشياء الثمينة يملكها النصارى. كنا نأكل الرغيف الجاف والبيض المسلوق الذي بدأت تفوح رائحته المغثية. عبرنا نهر ملوية. النساء والأطفال يعبرون على أكتاف العبارين. أبي كانت له بطاقة التعريف الشخصية. أنا لم تكن عندي أية ورقة. كل الذين لا يملكون جواز السفر يضطرون إلى عبور هذا النهر بعيداً عن الجمرك. تارة نركب الحافلات وتارة نتابع الرحلة على الأقدام عبر البوادي عندما نقترب من أحد الجمارك.

في «وجدة» قضينا ليلة عند أسرة يعرفها أبي. في الصباح قتلت كثيراً من القمل في ثيابي. كنت قذراً. أسعل. لا أكفّ عن حك جسدي. الناس الذين يعرفهم أبي أكثر جوعاً منا. تفو على هذه الرحلة، رحلة الجوع!

محمد شكري



الخبز الحافي

سيرة ذاتية روائية

١٩٣٥ ـ ١٩٥٦

٤

وصلنـا إلى وهران ليـلاً. في حي «الطحـطاحـة» دَلَّنـا رجـل يتكلم الريفية على سكنَى الأسرة التي يفتش عنها أبي.

إستقبلتنـا كلاب شرسـة خرجت من الكهـوف الآهلة. كاد يعضني كلب ارتمَى على ساقَيَّ. أسيرُ أمام أبي. يهش على الكلاب بـالحجارة. حين تقترب منا يستعمل العصا التي التَقَطَها. يسب الكلاب ويسبني.

- إمشِ أمامي يا هذا الخواف. إمشِ لتأكل أمك القحبة.

تعثرتُ وسقطتُ. هوى عليّ بـالعصا. عـويت. شتمته في خيـالي. يدفعني برأس العصا إلى الأمام. إلتقـطت عُصَيَّةً لأطـرد بها الكـلاب. أعفس على الحجارة النـاتئة ونبـات القراص. يضربني ويلعنني جهـراً، أضربه وألعنه في خيالي. لولا الخيال لانفجرتُ.

خـرج رجل من كهف. تنـاديا قبـل أن يتعانقـا: السي المصـطفى - السي حدو. كانت مغارة كافية ليعيش فيها شخصـان فقيران. امـرأته وجدناها تُصَلِّي. ملابس الرجل رثة، قاتمة، وجهـه غير حليق، وثيـاب المرأة بيضاء، جدُّ نظيفة. المغارة تُضَاءُ بفانوسين.

سألتني عن أمي وإخوتي الذين ولدوا في المنفَى. أجبتها تارة صـادقاً وتارة كاذبـاً. من يستطيـع أن يتكلم صادقـاً أمام أبي؟ سمعت الـرجل

يسأل عن أحوال المغرب وحياة الريفيين الذين هاجروا إلى الشمال والجنوب. قال له أبي:

ـ حياتنا هناك في المدن الشمالية بائسة. العمل قاس في الأوراش والأجور هزيلة. التقحبن في كل مكان، لكن الريفيين لا يسمحون لبناتهم أن يدخلن البورديل.

ـ هنا أيضاً في وهران الحياة ليست سهلة، لكننا ما دمنا نستطيع الحصول على الخبز والبصل فإن كرامتنا ستظل مصونة.

تألمت المرأة لموت أخي عبد القادر الذي تعرفه في الريف. كنت أود لو أقول لها إن أبي هو الذي قتله. قالت إنها تركتني في الخامسة أو السادسة من عمري في الريف.

ـ ها هي الآن قد مضت حوالي ثماني أو تسع سنوات.

هكذا قالت:

في اليوم التالي عثرنا على خالي «إدريس» وجدتي «رقية» في حي «الدوار الجديد» وعلى خالتي في حيّ سيريمين متزوجة بمراكشي. قالت لي جدتي:

ـ إنك كبرت. قريباً ستصير رجلاً وتتزوج مثل خالك إدريس. ستشتغل وتعينني على العيش. أليس كذلك؟

كانت هزيلة ومريضة.

تركني أبي مع خالتي وذهب يبحث عن إخوته في مدن أخرى بعيدة عن وهران. بعد حوالي ثلاثة أشهر وصلت رسالة تقول لنا إن أبي قد عاد إلى تطوان وإنه من الأحسن أن أبقَى أنا في وهران.

عثر لي زوج خالتي على عمل في مزرعة الفرنسية التي يعمل في اصطبلها. كنا نعمل في حقل الدوالي من الخامسة صباحاً إلى السادسة مساء بسبب الساعات الإضافية. أحياناً نمدد القيلولة إلى ساعتين أو أكثر إذا لم يجئ مراقب العمل. أقود البغلين بالزمام في خط المحراث. هذا هو عملي. لوني يسمرّ، راحتاي تكنبان، جسمي ينحل ويشتد. الشيخ الحراث، الذي أعمل تحت أمرته، رحيم بي على مزاجه: يقسو علي ويرفق بي حسب الظروف. أدركت أن شتمه إياي لم يكن إلاّ وسيلة لصرف تعب عمله الشاق. ما يؤلمني منه هو أنه يعايرني بأني قبائلي: «بلادكم لم تنجب سوَى رجلٍ واحد هو عبد الكريم الخطابي».

لم أكن أعرف بعد من هو عبد الكريم الخطابي.

عملت حوالي ستة أشهر في الدوالي. في أيام الآحاد أصطاد العصافير بالأفخاخ صباحاً وفي المساء أذهب إلى المدينة، مرة حاولت أن أطلع إلى شجرة ضخمة. تسلقت مراراً جذعها الأملس دون أن أستطيع الوصول إلى رأسها. ساقها طويلة وملساء. غضبت. من تكون هذه الشجرة؟ ذهبت إلى مرأب المزرعة وسرقت صفيحة نفط. أفرغت الصفيحة كلها على جذعها وأشعلت النار. منظر اللهيب بدا لي رائعاً والجذع الأملس يخشوسن. تخيلت أن النار ستمتد وتمتد حتى تحترق كل الأشجار. تذكرت يوم أشعلت النار في سياج غرسة عين خباز. في ذلك اليوم لم أستطع أن أتفرج على جمال النار. الشجرة تحترق ولا أحد يأتي. مساكن المزرعة بعيدة. ها أنت الآن خشنة. أستطيع الآن أن أصعد إليك بسهولة. فكرت في الشجرة لو أنها امرأة. تذكرت يوم أحرقت ثوب فاطمة بنار خيالي. بحثت عن شجرة

أخرى صغيرة. ملساء وجميلة. جذعها على قياس ذراعي حين أعانقها. رسمت على جذعها تصميم امرأة وشرعت في الخلق: سيكون لك ما للمرأة. خلال أسبوع حفرت في جذعها حُفْرَتَيَّ النهدين، والفم وحفرة ما بين الفخذين.

الشجرة ـ المرأة.

أضع في الحفرتين برتقالتين مثقوبتين للمص أو تفاحتين للعض وإحداهما في الفم. في حفرة ما بين الفخذين أضع خرقة فيها زَبَدٌ أو زيت. صرت أنقل إلى الشجرة ـ المرأة صور الجميلات.

قال لي زوج خالتي:

ـ غداً لن تذهب إلى الحقل. إن زوجة مراقب المزرعة، المسيو سيجوندي، تريد أن تراك. من المحتمل أن تعمل عندها في منزلها إذا أعجبتها.

فرحت، لكن هذا الشرط: «إذا أعجبتها...» آلمني.

إستقبلتني زوجة مراقب المزرعة بلطف. شابة، جميلة، متوسطة القامة، ذات سمرة خفيفة. ذكرتني رشاقة جسمها بقوام أسية. خجلت أمامها ووقحت في خيالي. موضوع جديد لأحلامي. كلمتني بالإسبانية. أجهدتُ نفسي باضطراب كي أتذكر الكلمات الإسبانية القليلة التي بدأت أنساها. أعطتني عطلة ثلاثة أيام وبعض النقود قبل أن أبدأ عملي معها. قضيتها متسكعاً في المدينة بين السينما والسيرك والمقاهي في حي المدينة الجديدة. كنت أحمل معي من المدينة زجاجة خمر أشربها ليلاً في الكوخ المجاور لمنزل خالتي في المزرعة. يشاركني، في وحدتي الليلية، كلب خالتي الضخم «تيجري» (Tigre).

علمتني مخدومتي غسل الصحون، قَلْيَ البيض والسمك والمقليات الأخرى. ذات مرة طبخت لها طبخة مغربية. إستلذت طبخة الطاجين. صارت تقول لي مرة في الأسبوع:

ـ اليوم سنأكل طاجينكم المغربي. عليك أنت أن تطبخه وحدْك.

شعرتني سعيداً معها. صارت موضوع رغبتي الجنسية. لم أعد أفكر في الشجرة ـ المرأة. الحنين يحزنني عندما أفكر في بغايا بورديل تطوان. على مهل أو بسرعة. بتقبيل الشفتين وضم النهدين أو مجرد أن يدخل الشيء في الشيء. لا بدّ لي من رفيق هنا لكي أتشجع. لم أعرف كيف أتردد على بيوت الدعارة التي سمعت عنها، لكن الرفاق عبوسون في وهران. لا يكادون يبتسمون.

كنت أرى، أحياناً، مسيو سيجوندي الإيطالي يقبل زوجته الفاتنة وينزه يديه على جسمها على مرأى مني. في غالب الأحيان أحمل لها الإفطار إلى السرير. زوجها عار حتّى النطاق وهي تَشِفُّ غلالتها عن حلمتيها. لأول مرة أمرتني أن أغسل لها سليبات زوجها. قلت لها في البداية: نعم، على مضض لكن عندما وضعت السليبات في الماء قلت لنفسي: الرجل لا ينبغي له أن يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر. قلت لمخدومتي مونيك:

ـ لن أغسل سليبات مسيو سيجوندي.

ـ لماذا لا؟

ـ إنها سليبات مسيو سيجوندي.

ـ وماذا في ذلك؟

قلت لها خافضاً رأسي:

ـ الرجل لا يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر.

ضحكت ثم قالت:

ـ وثياب المرأة؟

قلت بحيرة:

ـ ثياب المرأة... شيء.... شيء آخر. يمكن للرجل أن يغسل ثيابها إذا هي لم تستطع أن تغسلها بنفسها.

قالت باسمة:

ـ أنت عجيب. (أضافت): أنت رائع. قل لي، أهذه عادة عندكم في المغرب؟

لم أكن أعرف بعد أهي حقيقة عادتنا أم أنها صادرة عن تفكيري الخاص. لم يسبق لي أن مررت بتجربة تماثلها. إنها مشكلة مع هذه المرأة. قلت لها:

ـ نعم، عيب أن يغسل الرجل ثياب رجل مثله.

ـ هذا غريب عندكم.

ضحكا كثيراً هي وزوجها عن الحادث. بعد أيام أمرني زوجها بالقوة أن أغسل له سليباته. رفضتُ. هو يصر وأنا أرفض. أفهمته أن هذا العمل تقوم به المرأة الوهرانية التي تنظف لهما المنزل. عبثاً رجته زوجته أن يكف عن عناده. تكلما بصخب وغضب بالفرنسية التي لم أكن أعرف منها سوى كلمات قليلة. قال لي بحدة:

ـ لماذا ترفض أن تغسل لي سليباتي؟

ـ لأنه هكذا.

ـ أتعتقد أن ثيابك أنظف منها؟

لم أجبه. صاح بغضب:

ـ إذهب إذن إلى منزلكم ولا تعد أبداً.

قلت لنفسي: طز في كل أوامر المخدومين. لم يبق لي سوى أن أغسل خراء المسيو سيجوندي. سأعود إلى تطوان. حياتي هناك وليست هنا.

بعد ثلاثة أيام أعادوني إلى العمل. جاء والدا مخدومتي الجميلة مِن سيدي بلعباس. حدثني أبوها عن أصله الإسباني. تأسف حين أدرك أني لا أعرف القراءة والكتابة بأية لغة. سألني:

ـ ألا يعلمون عندكم العربية والإسبانية في تطوان؟

ـ نعم، سمعت انهم يعلمون العربية والاسبانية.

ـ لماذا إذن لم تذهب إلى المدرسة؟

ـ لأن أبي لم يفكر أن يدخلني إلى المدرسة.

ـ أهو لم يكن يريد أم أنت الذي لم تكن تريد أن تذهب إلى المدرسة؟

ـ لا أدري. أنا لم أهرب قط من المدرسة. إننا جد فقراء، والدراسة تكلف هناك بعض المال.

تأمل جبهتي للحظة وسألني:

ـ بماذا حدثت لك هذه الندبة؟

ـ داستني دراجة في سباق للدراجات عندما كنت أعبر إلى الرصيف الآخر.

أمسيات وهران، في الصيف، طويلة وجميلة. الشيوخ يلعبون «الداما»، الشبان يتبارزون ابتهاجاً «بالمطرك»[1]، النساء يجلسن على عتبات منازلهن يتحدثن، الأطفال يتوزعون هنا وهناك يعلبون ويخترعون أشكالاً من التراب والخشب والقصب.

زرت سيدي بلعباس مع مخدوميًّ. رحب بي كثيراً والدا مخدومتي وخالتها. والدها أكثر عطفاً عليّ منهم جميعاً. تجولت في المدينة. بدت لي موحشة. أعجبني شارعها الرئيسي والكاتدرائية. سمعت في الشوارع إسبانيين يتحدثون بلغتهم[2]. رأيت سيركا. عرضه يبدأ في الخامسة. لكن مخدوميًّ أخبراني أننا سنعود إلى وهران في السادسة. دخت بكآبة. شربت كأسَيْ نبيذ في حانة إسباني. زرت معرض الحيوانات الملحق بالسيرك. توقفت عند قفص قرد. الأطفال يلاعبونه بشراسة. لم أعرف كيف حدث ذلك: شعرت بأظافر القرد تشطب وجهي. ضحك الأطفال وتأسفوا. أبعدهم الحارس عن القفص. القرد يقفز في قفصه هائجاً، مكشراً عن أسنانه. منظر إنساني ألم وجهي: شاب وشابة، من لاعبي السيرك، يتعانقان بحب وراء الخيمة الكبيرة بلباسها اللامع. فكرت: ما أجمل حياة السيرك! تذكرت بستان عين خباز، أسية تتعرى، انزلاقي فوق جسم فاطمة العارية وبغايا «السانية». حرارة أفخاذ النساء. ذلك ما كنت أحن إليه.

صبغوا لي وجهي في منزل خالة مخدومتي باليود. تركتني خالة مخدومتي أتنزه في حديقتها. الحديقة معنكبة. تحت قبة الحديقة وجدت

(١) المطرك عصا يتبارز بها الجزائريون جدياً وابتهاجاً، بعضهم قد يتفنن في صنعها، خاصة مقابضها.

(٢) فيما بعد عرفت أنهم من مناهضي حكم فرانكو.

مقعدين خشبيين مهترئين، مغبرين. ملأني المشهد بحزن. الحديقة موحشة. أشياء مكسرة وأخرى ممزقة. العصافير على الأشجار. تلوث رأسي وكتفاي بذرقها.

في اليوم التالي اسودت خدوشي. يوم الأحد لم يأخذني مخدوماي معهما في سيارتهما. بقيت وحيداً في المنزل. فتحت الراديو. بعد لحظة أقفلته وشغلت الفونوغراف. كلمات الأسطوانات لم أكن أفهمها. موسيقاها هي التي تطوف بي عوالم فيروزية اللون. مخدومتي تعرف حبي لمقطوعة «الدانوب الأزرق». حين يكون مزاجها رائقاً تقول لي باسمة: «سأضع لك أسطوانتك. «ستراوس» موسيقي عظيم».

أخذت اضمامة صورها. تأملت صور عائلتها بسرعة. قلت لبعض صورها وهي طفلة: أكبري! أكبري بسرعة! بدأت تكبر في كل صفحة من الألبوم أقلبها. توقفت عند صورها الشاطئية خارجة من الماء أو مستلقية على الرمال مع زوجها أو وحدها. ثلاث صور تبدو فيها عارية تماماً: الأولَى واقفة. منحنية قليلاً إلى الأمام، واضعة يداً على يد أسفل بطنها، الثانية على ركبتيها جالسة فوق ديوان من الفراء، صدرها بارز، مستندة إلى الوراء بيديها، استثارتني في الخيال:

ـ أهو جميل هذا الوضع؟

ـ رائع.

في الصورة الثالثة مستلقية على الديوان، رأسها يتوسد يديها، ساقها اليمنَى مقوسة قليلاً. قال لي وضعها هذا:

ـ تعال!

قالت شهوتي لصوتها:

ـ أنت لي.

من صورها هكذا؟ زوجها؟ لو كانت عندي آلة تصوير في ذلك الصباح لصورت أسية آتية نحو الصهريج، عارية تستحم، حائرة تفتش عن منامتها، خائفة هاربة.

نزلت إلى قبو المؤن لأحتفل بالعرس الخيالي. فتحت صنبور البرميل وملأت قدحاً بنبيذ أعرف طعمه الجيد. وضعت زيتوناً أسود والجبن الدنماركي في صحن. أشرب وآكل على مهل. إحدى صور مونيك الجميلة أمامي تغمرني. نفخت فيها الحياة. تمططت مونيك. نفخت الصورة في جسدي رعشة الحلم اللذيذ. أهي الصورة في خيالي أم خيالي في الصورة؟ جسدي يتدغدغ. يعنف قليلاً. أخرجت ثعباني وبدأت أدلكه وألاطفه. ينتفخ، يَحْمَرُّ، يعرق ويلهث. يتعسل فمي، تتراءى الألوان متموجة. كل الألوان لا لون لها ولها كل الألوان.

أحسست بخطوات. زررت فتحه سروالي. قالت:

ـ لكن ماذا تفعل هناك؟

ـ . . .

ـ وهذا الألبوم، ماذا تفعل به هنا؟

ـ . . .

أخذتْ ألبومها وصعدتُ وراءها.

ـ من سمح لك أن تتفرج على ألبومي؟

صفعتني. أكملتْ صفعتها لذتي.

ـ شربت، أليس كذلك؟ لا أسمح لك أبداً أن تفعل هذا هنا.

سحتُ في الحقول غاضباً على نفسي وتيجري يتبعني. تذكرت

الصابونة المعطرة والكوب في القبو. ستقول مونيك الجميلة: يستعمل أيضاً صابونتي. آلمني خجلي. هي تعرف الآن أني أضاجعها في خيالي.

عند عودتي أبصرت جمعاً من عمال القرية وأسرهم يتجمعون حول عدد كبير من رؤوس الغنم التي داسها القطار. بعضها ذبحوها وبعضها نفقت قبل أن يذبحوها.

في الليل بدأ عواء الثعالب قرب منزلنا. فكرت: تفترس الآن الاحشاء. لو كنت كبشاً بين ذلك القطيع لكانت الثعالب تمزق أحشائي الآن بأنيابها.

دخل تيجري ينزف دماً. يدور حول نفسه، يخرج ويدخل، يتأوه، يحاول أن يلعق جروح عنقه، أيقظت خالتي في منزلها. وضعت له في جروحه الرماد وضمدته. قالت:

ـ جروحه عميقة. لا شك أن خمسة أو ستة من الثعالب قد تعاركت معه.

رَبَطْتُهُ في كوخي من وسطه خوفاً من أن يخرج. رأيته يموت شيئاً فشيئاً. مات قبل أن أنام.

في الصباح حملت جثته بعيداً في عربة يد ودفنته تحت شجرة زيتون. تلك أول مرة أدفن فيها جثة. استولَى عليّ شعور غريب: لماذا يسوق القدر هذا الكلب إلى الموت بهذا الشكل الفظيع؟ القطيع أيضاً داسه القطار. الراعي غبي. تيجري غبي. تيجري لا يعرف معنَى الموت. لا شك أن العالم مليء بالغباء. أنا أيضاً غبي؟

لم أرد أن أعود عند مخدومتي. الخجل ما زال يؤلمني. قالت لي خالتي:

ـ إذا لم تكن تريد أن تذهب عند السيدة سيجوندي فأنت تعرف ما ينفعك. لا بد أن تشغل نفسك بعمل ما.

تذكرت ما كان قد قاله لي أبي في تطوان: «أن الأكل والنوم في الدار يكلفان مالاً».

جاءت مونيك عند خالتي. أخذت أترجم ما تقوله الواحدة للأخرى. خالتي لا تعرف سوى الريفية والدارجة الوهرانية. مونيك تكلمني بالاسبانية. مشرقة هذه المخدومة. بدت لي ألطف في هذا اليوم. مزاج المرأة صعب الفهم؛ حين يعتقد الواحد في امرأة أنها ستتسبب له مصيبة إذا بها تنقذه. حين يعتقد أنها ستنقذه ربما تقوده إلى مصيبة: الأنقاذ والهلاك متوقف على مزاجها.

مونيك إذن لم تكره فعلي، لكن لا بد من لوم. قالت لي:

ـ لقد اعتقدت أنك مريض. لماذا لم تجيء اليوم إلى العمل؟

ـ تيجري قتلته الثعالب في الليل.

ـ أخبرني زوج خالتك. مسكين. لقد كان كلباً قوياً وجميلاً. أين دفنته؟

ـ تحت شجرة زيتون.

ـ حسناً فعلت. سيعثر زوج خالتك على كلب آخر.

تـألمت مع نفسي: كلب ذهب، كلب سيأتي. يا ألهي! كن أيضاً رحيماً بالكلاب.

نهضت وأمسكتني من يدي. يدها دافئة. رعشات لذيذة تغزو جسدي.

ـ تعال معي إلى المنزل.

أنها إذن لم تخبر زوجها. أني أكرهه وأحبها: مثل أبي وأمي. بدأت أحلم كثيراً. أحلم أني أطير أو أعيش في كهف مفروش بالحرير وألوان لامعة تزين الجدران والبسط والبخور والعطور. أشير بيدي فيأتيني طبق مليء بما أشتهي. أصفق بيدي فتأتي فتاة رائعة لم تمسها بعد يَدُ إنْسَانٍ. ترقص لي عارية وسط ضباب من البخور وضياء الشموع.

ذات صباح رأيتها بعد أن خرج زوجها تأخذ علبة القطن وسليباً وتدخل الحمام. رأيت مراراً قطناً ملوثاً بدم قاتم في القمامة. من أين يجيء هذا الدم؟ وضعت عيني على ثقب الباب. تخلع سليبها. تجلس على المغسلة وتفتح الماء. أهي تبول؟ كم هو جميل أسفلها. مونيك تبول، مونيك تخرأ. ليتها لا تبول ولا تخرأ. تغسل شيئها وتحك عانتها. تضع منشفة بيضاء في جرحها. هكذا رأيت المرأة التي نعست معها في بورديل تطوان تفعل عندما انسحبت من فوقها. تضع القطعة القطنية في جرحها. تلبس السليب النظيف. أهن كلهن ينزفن هكذا؟ مونيك الجميلة تنزف دماً! شيء مقرف إذ كن ينزفن دائماً.

صحبت معي إلى الحقل غلام أحد الجيران. يصغرني. سنصطاد عصافير كثيرة. هكذا قلت له. كنت أحمل مصائد. غلام وسيم، رقيق، يلبس الشورط، بشرته جميلة، وجنتاه موردتان، شفتاه قرمزيتان، صغيرتان. منذ أيام وهو يسبب لي دوخة لذيذة كلما رأيته. نصبنا المصائد وجلسنا تحت شجرة زيتون. أكلنا لحماً مقلياً وبيضاً مسلوقاً. دخن وشرب معي. قال:

ـ أنني أدخن وأشرب لأول مرة.

قلت له كما قيل لي في تطوان:

ـ لن تَسعل أو تمتعض في المرة المقبلة من الشراب والدخان. هكذا حدث لي أنا في المرة الأولَى عندما كنت في تطوان. (أضفت): هل دُخْتَ؟

ـ قليلاً.

اقترحت عليه أن ندخل وسط سنابل القمح عسانا نعثر على بيض الطيور. كنا نتنزه ورغبتي فيه ترعش جسدي. شفتاه تلمعان. جلسنا. استلقيت على ظهري. استلقَى إلى جانبي. تطوان! تذكرت أغنية تبدأ هكذا:

«عشقت طفلة أندلسية، صغيرة، شابة، خمورية...»

أنه طفل؟ شيئي ينتصب. أنه طفلي. عيناي تدمعان باللذة. لاطفت يده، سحبها وجلس ناظراً إليّ مستغرباً. عيناي دامعتان باللذة. خاف.

ـ ماذا تريد أن تفعل لي؟

ـ لا تخف. أنت جميل. تمدد إلى جانبي.

داعبته بيدي. كدت أبكي من اللذة. قال:

ـ أنا لا أحب مثل هذه المداعبات.

قالت له عيناي:

ـ أرجوك. أني أحب أن ألاَطِفَكَ.

همَّ أن يقف. أمسكته من يده بعنف. جسمي يرعش. الجنون في رأسي. سحب يده بقوة ووقف. أراد أن يهرب. عانقت ساقيه وجذبته بقوة وجنون تحتي.

صار لي. طفلي!

ـ سأشكوك لأمي. سأشكوك لأبي وأمي. سأشكوك...

أمهات العالم. آباء العالم. تارة يعض يدي وتارة يعض التراب. جسدان في جسد. يخمشني. أعضه في رقبته. يكف عن الصراخ والاهتزاز. يستقر دفئي في دفئه. ألاَمِسُ عضوه بيدي. ينتصب شيئه في يدي. يتلذذ. أبوس رقبته، شعره، وجهه، فمه...

شكا لأبويه. اللعين! في تلك الليلة أنبتني خالتي. خجلت. أنكرتُ. حلفتُ لها أني بريء. كرهت ملذات جسدي. بكيتُ. رأيت خالتي في اليوم التالي تبوس رأس أم الغلام طالبة عفوها. جسدي. تفوا!

قالت لي خالتي:

ـ لا بد أنك تعذب أمك كثيراً في تطوان. كن عاقلاً.

قلت لها في خيالي:

ـ كيف ينبغي لي أن أكون عاقلاً يا خالتي؟ كيف؟

ـ لا تفعل كل ما هو قبيح.

ـ لكني أحب ما هو قبيح لذيذ.

ـ لا أفهمك.

ـ في تطوان كانت لي أفخاذ بغايا بورديل «السانية». وهنا هل أشتهي فخذيك؟ فخذا مونيك لزوجها. فخذاك لزوجك. وأنا؟

مخدومتي تلاحظ فتوري في العمل وشرودي. قالت:

ـ لا شك أنك تشتاق إلى رؤية أهلك في تطوان.

ـ لا أدري.

ـ أكيد أنك مشتاق لأهلك.

قلت لها في خيالي:

ـ أعطني فخذيك أُعْطِكِ أَهْلي.

جنون. الشوق إلى التطوان جنون. الخمر والنساء والكيف. جنون جميل. تطوان مجنونة. ليس هنا جنوني. في أي مكان في العالم سأبحث عن جنوني.

قالت:

ـ اسمع، سنعطيك اجازة شهر كامل لتزور أسرتك ثم تعود إلينا.

وافقتها. كنت قد سرقت لها إحدى صورها ومنديلاً صغيراً عطرتهُ بأزكى ما عندها من عطور.

لم أكن أرى جدتي وخالي إلاَّ عندما كانا يزوران خالتي في أيام العطل. أحياناً يأتي هو أو هي فلا أراه أو أراها. لا عاطفة نحوهما. لا محبة، لا كراهية. هو وهي. هذا كل شيء.

لم تبدُ لي وهران عزيزة إلاَّ يوم رحيلي. أَلِلأنني أمل مما أحبه؟ سمعت أحدهم يقول:

«الداخل إلى وهران زربان (مستعجل) والخارج منها هربان (هارب).

في طريق عودتي إلى تطوان فكرت في أيهما أفضل: وهران منفَى جميل وتطوان سجن جميل. سجن الوطن ولا حرية المنفَى.

قضيت يومين في مليلية ويوماً في الناظور. تحدثت عن وهران مع ناس لا أعرفهم. قال لي أحدهم: «الناس يهاجرون إلى وهران وأنت تهجرها!».

٥

عندما وصلت تطوان تيقنت أني لن أعود إلى وهران. سبقتني رسالة من خالتي إلى أمي تقول لها فيها بأني أسبب لها مصائب لا تقوى على تحملها، وأنه من الخير أن أبقَى في تطوان. عندما أخبرتني أمي قلت لها:

ـ ومن قال بأني أريد العودة إلى وهران؟

وجدت أمي قد ولدت طفلة ماتت في الرضاع. لكن بطنها بدأ ينتفخ من جديد، أبي ما زال يقضي معظم وقته في ساحة الفدان مستلذاً بطالته. ينام كثيراً. يأكل مثل خنزير. يتناول النشوق ويعود أحياناً ثملاً إلى المنزل. ما زال يسب الناس دائماً والله أحياناً. لا يحب أحداً في هذا العالم. إذا اقتربت منه قطة يمسكها من ذيلها ويخبطها مع الحائط. من الغريب أنه يعامل الدواجن (مثل الدجاج والأرانب والمواشي) بلطف قبل أن يذبحها. ما أن يقبض على دجاجة أو أرنب للذبح حتّى يخيل إليّ أن الحيوان يموت بين يديه القويتين قبل أن يُنْحَرَ.

اختي ارحيمو كبرت، أمي صارت تعتمد عليها كثيراً في الدكان. صالحني رفاق حي الطرانكات مع كوميرو، لكنني ظللت أحذر من انتقامه. رأيت ندباً يقسم خده الأيمن. كثير من الرفاق صاروا يهابونني. كانت لي طريقة خاصة في وضع شفرة حلاقة أو شفرتين

ملصقتين في فمي وأتكلم دون أن أجرح فمي. مثل هذه اللعبة تؤكد لهم مهارتي في الضرب بالشفرة.

في ماخور السانية ذهبت نساء وجاءت أخريات. فتيات قبيلة بني عروس مشهورات بجمالهن في الماخور وكذلك الغلمان الذين يرقصون في المقاهي الشعبية رقصات أنثوية لابسين القفطان والزكدون والحزام الجبلي الشبيه بعجلة سيارة. أيضاً ذهب حماة موشومون وجاء آخرون موشومون مثلهم.

أستمتع بالنوم في الدروب صحبة المتشردين أو وحدي. ذات صباح باكر أيقظتني في درب فتاة حنونة عرجاء وجميلة. سألتني:

ـ ألست أنت ولد السيدة ميمونة؟

ـ نعم.

ـ أنا أعرف أمك. لماذا لا تنام في داركم؟

ـ أبي طردني.

جاءتني برغيف مزبد وكوب قهوة بالحليب. خجلت أن أرفض لها كرمها معي، لكني صرت أحتاط كي أفيق باكراً وأنصرف من ذلك الدرب المنعزل والدافىء. لم يعد يروق لي عطف الناس عليَّ: لا الرجال ولا النساء.

في فصل الشتاء تعودت أن أنام في ركن مخبزة. أكور نفسي كالقنفذ. ألصق ظهري إلى جدار الفرن الساخن. حين أفيق في الليل، لأغير وضعي أو لأبول، أجد فوقي قططاً تنام. أحياناً أستعذب شخيرها الخفيف الذي يشبه هدير معمل بعيد. أستلذ أيضاً

كل صوت حزين يصلني من بعيد أو همساً عن قرب. بعض الأغاني التي اسمعها من المقاهي البعيدة كانت حزينة ورائعة: اسمهان، أم كلثوم، عبد الوهاب وفريد الأطرش. هؤلاء كانوا المفضلين عندي في العالم العربي.

أيقظني ذات صباح رجل سائلاً إياي:

ـ ألست أنت ابن السيد حدو؟

ـ كلا. لست أنا.

أعاد السؤال بإلحاح وحيرة:

ـ ألست أنت ابنه محمد الذي عاد من وهران؟

ـ قلت لك لا. ولا أعرف شخصاً بهذا الإسم.

ـ ما اسمك إذن؟

ـ محمد.

ـ لكن أباك هو السيد حدو بن علال وأمك هي السيدة ميمونة.

ـ قلت لك بأني لا أعرف سوى نفسي.

ـ من هو أبوك إذن؟

ـ مات.

ـ مات؟

ـ نعم، مات من زمان.

ـ ماذا كان اسمه؟

ـ لا أدري. كنت أعرف اسمه، لكني نسيته. كنت في بطن أمي عندما مات.

تأملني لحظة وقال:

ـ ما شاء الله! ما شاء الله!

مدّ لي بسيطتين قائلاً:

ـ هاك، إشْرِ لنفسك إفْطَاراً. لا بد أنك جائع.

قلت له بصوت جاف:

ـ لست في حاجة إلى شيء. عندي نقود.

ـ عندك نقود وتنام هكذا هنا مثل قط. هل أنت أحمق؟

قلت له غاضباً:

ـ القط العجوز هو أنت والأحمق الحقيقي هو أنت.

نظرت إليه بجنون. صرخت في وجهه وأنا أنهض: عاووو! عاو عاو!

انصرفت وتركته خلفي يردد: «باسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من أولاد هذا الزمان».

وضعت أمي طفلة سموها الزهرة مثل الطفلة التي ماتت قبلها. هذه أيضاً عضها في ليلة جرذ في يدها فماتت.

كثيراً ما يباغتني أبي في الشارع من الخلف ويقبض عليّ من ياقة قميصي أو يلوي ذراعي إلى ظهري بيد وباليد الأخرى ينهال عليّ ضرباً حتّى يسيل دمي. عندئذ أعرف أن حزامه العسكري السميك

ينتظرني في المنزل. حين تتعب يداه وقدماه من الضرب يعضني في كتفي أو في ذراعي قارصاً أذنيَّ، صافعاً وجهي. إذا ضربني في الشارع غالباً ما يتدخل بعض الناس ويخلصونني منه، لكنه لم يعد يفعل. هكذا فحين يقبضني أسقط على الأرض وأصرخ بجنون. يشطب بي الأرض لحظة رافساً إياي حتّى أفلت منه ثم أجدني بعيداً لاعناً إياه، كارهاً كل الناس، باصقاً على السماء والأرض. ذات يوم كنت مع نشالين في مقهى ندخن الكيف ونشرب الشاي الأخضر. قررنا أن نسرق لنقضي ليلة في البورديل. ذهبنا إلى السوق الجديد. الزحام خانق. فاجأني من الخلف وقبض عليّ من ياقة قميصي. قبل أن اشرع في الحيلة التي تخلصني منه هاجمه رفيقاي. ضرباه باللكم ونطحات الرأس. سمعته يصرخ ويئن ويستغيث. رأيته يغطي وجهه بيديه والدم يسيل من بين أصابعه بغزارة. وقفت بعيداً أنتظر نهاية المشهد. تمنيت لو أني أشاركهما في ضربه. لو كان في مكان خال من الناس لشاركتهما. كان عزاء لي أن أراه يُضْرَبُ على مرأى مني حتّى يسيل دمه كما أسال دمي كلما ضربني. قال لي عبد السلام الذي لحق بي:

ـ ابن القحبة. ماذا حدث لك مع ذلك الكلب؟

ـ لا شيء، إنه أبي.

ـ أبوك؟

ـ نعم، لكنه يستحق أكثر مما حدث له.

قال السبتاوي الذي وصل:

ـ ولد الزبل. ولد القحبة.

قال لي:

ـ ماله معك؟

قال له عبد السلام:

ـ إنه أبوه.

ـ أبوه؟ (أضاف لي): أبوك؟

ـ نعم، أبي. (أضفت): إنه يستحق أكثر مما فعلتاه له. إنه كلب.

عندما بلغنا درب «الطلعة» رأيت رجلاً مخموراً يخرج من دار. كانت ليلة باردة، ماطرة. قال عبد السلام:

ـ المطر سيخفف من هذا البرد.

تخطانا الرجل السكران يترنح. سمعنا ارتطاما على الأرض. قال السبتاوي:

ـ إنه جد سكران. لا بد أنه قضَى اليوم كله يسكر هنا. أنا أكره السكر في النهار.

نهض الرجل السكران بصعوبة. دخلنا نفس الدار التي خرج منها. استقبلتنا امرأة أنفاسها مخمورة. جسمها رشيق، لكن وجهها متعب. لابسة قفطانا من المخمل أسود. أمسكتْ وجه عبد السلام بين يديها بحنان ورقة وباسته في فمه: قبلة مسموعة. قالت له:

ـ ماذا حملت لي معك اليوم؟ ماذا حملت لأمك؟

إنها أمه إذن. أمه تبوسه في فمه هكذا كأنه عشيق صغير. قال لها عبد السلام:

ـ كل شيء. كل ما تريدينه سأتيك به ما دمت حيا.

ثم أعطاها سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب. فحصت الصليب وقالت:

ـ هذا سأخلعه لأرميه أو أذوبه عند الصائغ لأجعل منه «خميسة».

رأيت السبتاوي يتجه إلى حجرة مضاءة. أصوات رجال ونساء وضحكات. قدمني عبد السلام إلى أمه المخمورة:

ـ ماما، هذا صديق جديد. محمد. (فحصتني بعينيها الناعستين). سيسهر معنا هذه الليلة.

احتضنت وجهي برفق بين يديها وقبلتني في شفتي. قبلة متمهلة ذات رنين. استعذبت أنفاسها المخمورة المزيجة بعطر قوي.

ـ مرحباً بك عندنا.

تأملتني لحظة ماسكة وجهي بين يديها مبتعدة قليلاً إلى الوراء. عيناها ناعستان مشرقتان نديّتان. أمالت رأسها قليلاً إلى الوراء. أكاد أرى وجهي في عينيها الدامعتين. ماذا تريد مني هذه المرأة؟ أهي تسحرني؟ اضطربتُ. عيناها جميلتان. عبد السلام ينظر إلى أمه مبتسماً. أهي حقيقة أمه أم هي لعبة؟ ربما تكون تبنته. قالت لنا:

ـ اطلعوا إلى الغرفة كلكم. سيأتيكم كل ما تريدونه.

صعدت مع السبتاوي إلى الطابق العلوي وتركنا عبد السلام يتفاهم معها حول سهرتنا.

حملت إلينا فتاة، في حوالي العاشرة، صينية وزجاجة كونياك تَرّي. قال السبتاوي:

ـ ليس أحسن من الكونياك في هذا اليوم البارد.

قلت له:

ـ وهاضم.

كنا قد أكلنا طعاماً دسماً. محفظة النقود التي سرقها السبتاوي كانت تحتوي على ثلاثة آلاف بسيطة. قال:

ـ عبد السلام يتفاهم مع أمه لجلْب ثلاث فتيات جميلات من خارج الدار. هناك فتيات كثيرات لا يقحبن علانية. يبقين في منازلهن رهن طلب القوادات. بعضهن متزوجات. قد تجد بينهن من هي عذراء.

ـ وهل يمكن نكاح عذراء؟

ـ إنها تسهر مع الجماعة، وفي نهاية السهرة ترسل معها القوادة من يصحبها إلى دارها أو تنام معها حتّى الصباح.

ـ وإذا أراد الواحد أن يفتض فتاة عذراء!

ـ في هذه الحالة ينبغي دفع ثمن افتضاضها.

ـ كم، مثلاً؟ (نظر إلي بتعجب). أضفت:

ـ إنني أسأل فقط.

ـ هلا تريد أن تفتض واحدة؟

ـ إذا كان ممكناً ذلك فلماذا لا!

ـ إنها تكلف ألف بسيطة أو ألفاً وخمسمائة بسيطة.

ـ أليس عند أم عبد السلام هنا فتيات؟ لقد سمعت أصواتهن في الحجرة التي دخلتها أنت.

ـ عندها هنا فتاتان مُحترفَتان، جميلتان، لكننا شبعنا منهما أنا وعبد

السلام، هذه الليلة ليس هناك سوَى فتاة جديدة تشرب الكونياك لتسكن ألم ضرس.

سمعنا أصواتاً رقيقة ضاحكة. قال السبتاوي:

ـ ها هن طالعات.

أطلت علينا أم عبد السلام باسمة ثم ظهرت خلفها ثلاث فتيات لابسات القفاطين. إنه عرس، عرس حقيقي. ملأت أم عبد السلام كأساً لنفسها وانصرفت به. دخل عبد السلام حاملاً في يده كرتوشة سجائر فرجينيا. جلست كل واحدة إلى جانب كل واحد منا دون اختيار.

لم أخرج خلال ثلاثة أيام. ينصرفن في الصباح إلى الحمام. في المساء يعدن نظيفات، معطرات، مكحلات ومسوكات. السبتاوي وعبد السلام يخرجان معاً وأفضل أنا البقاء نائماً أو حالماً في يقظة بذكرياتي في طنجة وتطوان ووهران. في الليل يصير للحياة طعم الخلود.

لم أنفق سوى ثلاثمائة بسيطة. أحياناً تأتيني عزيزة، أم عبد السلام، لتحدثني عن حياتها وتشرب وتدخن سجائر شقراء. احياناً تدخن الكيف. في المساء الرابع لم يعد عبد السلام والسبتاوي. طلبت مني أن أخرج لكي أفتش عنهما. دخت وعرقت عندما خرجت من الدار. بعد ساعتين عدت. أخذت تنتحب متسائلة:

ـ لا بد أن يكون رجال الشرطة قد قبضوهما؟

لم أعرف كيف أجعلها تطمئن. بين حين وآخر أردد برتابة:

ـ أتمنّى ألا يكونوا قد قبضوهما.

ظلت تتردد عليّ حتّى الواحدة صباحاً حاملة في كل مرة كأساً ملأى

بالكونياك. تارة تنتحب وتارة تضحك.

قالت:

ـ هناك في الأسفل فتاة ستنام وحدها هذه الليلة. هل تريد أن تنام معك؟ لا تدفع لها شيئاً. أنا سأتفاهم معها.

ابتسمت لها. شربت كأسها دفعة واحدة. نهضت. انحنت علي. أمسكت ذقني في يدها وباست فمي بلذة. قالت:

ـ إنك تذكرني بأخي «سلاّم».

لأول مرة أرَى امرأة سكرانة.

خطت خطوات خارج الغرفة ونادت على الفتاة:

ـ ياسمينة، اطلعي!

سمعتهما تتهامسان قرب الباب. لا بد أنها توصيها بي. دخلت الفتاة، خجولاً، لابسة قفطاناً. رائحة عطرها قوية. قالت:

ـ ما زال البرد شديداً رغم الأمطار الغزيرة التي سقطت.

صببت لها الكونياك بالليمونادا. أخذت ترشف من الكأس رشفات صغيرة. لم نتكلم كثيراً. خفف حضورها مللي. أمسكت يدها في يدي. قالت لها عيناي وبسمتي:

ـ أنا لا أفهم كثيراً من الأشياء. وأنت يا ياسمينة؟

قالت عيناها وبسمتها:

ـ أنا كذلك لا أفهم كثيراً من الأشياء في هذا العالم.

نظرت إلى المصباح. لا بد أن نطفىء الضوء حتىً لا نظل هكذا مثل أخوين.

٦

صالحني الجيران مع أبي. بدأت أساعد أمي في الدكان بانتظام. حتم عليّ أبي ألا أخرج للسهر في المقهَى. إنه عذاب لا يحتمل ألا أخرج في الليل. إن الليل هو كل ما أملك ما دمت أقضي النهار في الدكان مع أمي.

ذات صباح، وقف أمام الدكان شرطيان سريان: مغربي واسباني. قال لي الشرطي المغربي:

ـ تعال معنا.

فكرت في عبد السلام والسبتاوي. رجوت من ابن بائعة النعنع قبالة دكاننا أن يبقَى لي في الدكان حتىً أعود أنا أو أمي من مخازن الخضر. قاداني إلى مركز الأمن. قال لي الشرطي المغربي في المخفر:

ـ أين هو عبد السلام والسبتاوي؟

ـ لا أعرفهما.

ـ كيف لا تعرفهما!

ـ لا أعرفهما.

صفعني مرتين وشدني من قميصي على صدري:

ـ اسمع، إذا لم تقل لنا الحقيقة سنقلب لك وجهك إلى الوراء. أتفهم أم لا؟

أطل الشرطي الإسباني من مكتب وقال:

ـ ادخله.

عندما دخلت تطلع إليّ الضابط وقال:

ـ أهاه! أنت هو إذن.

كنت أعطي لابنه خوليو، في عين خباز، العصافير التي تخنقها مصايدي، لأني كنت أعتبرها جيفة. كانت زوجته تسخرني عند البقال وأصحبها أحياناً إلى السوق لأحمل لها السخرة.

ـ أين تسكن أسرتك الآن؟

ـ في حي الطرانكات.

ـ هل ما زالت أمك تبيع الخضر؟

ـ نعم.

ـ وأنت، ماذا تعمل؟

ـ أساعدها في الدكان.

ـ لكنك أيضاً تصاحب بعض النشالين وتسرق معهم.

ـ أبداً.

ـ ألا تعرف عبد السلام والسبتاوي؟

ـ أراهما في قهوة الطرانكات. لكني لا أصاحبهما.

ـ ألا تعرف أين يمكن أن يكونا الآن؟

ـ لا أعرف.

ـ منذ كم لم ترهما؟
ـ منذ أكثر من أسبوع.

ـ آي يايايای!

بعد لحظة قال:

ـ طيب، يمكن لك أن تنصرف، لكن إحذر أن يقبضوا عليك يوماً ما مع اللصوص.

شكرته وخرجت. خارج المخفر بدأت أبصق بين الحين والآخر نجمات من الدم الذي كنت أبلعه وأنا أجيب الضابط «ألڤا» (Alva) كما كنا نسميه في عين خباز.

في المساء وجدني صديقي التفرسيتي في مقهى الطرانكات أدخن الكيف مهموماً. فاحت منه رائحة النشوة. ألح عليّ أن أصحبه إلى سهرة سيقيمها أخوه الأكبر في أحد بساتين «كيتان» عند صديق له. اشترى التفرسيتي زجاجتين من نبيذ مالقة الحلو. ذكر لي أنه حضر عدة مرات مثل هذه السهرة التي سنذهب إليها. يقيمونها مرة كل سبت في ذلك البستان.

ـ حينما يسكرون ينهضون إحدى الفتيات لترقص لهم عريانة.
تعجبت:

ـ ترقص عارية تماماً؟

ـ وأكثر من هذا.

ـ ماذا أكثر؟

ـ اترك ذلك حتَّى تراه بنفسك.

ركبنا سيارة أجرة. كان التفرسيتي قد أصبح لـه رأسمال. يبيع الخضر والفواكه لحسابه. ذكر لي، في زهو، أنه يسكن مستقلاً عن أبويه وله عشيقة جميلة طلقت بعد ثلاثة أشهر من زواجها.

نزلنا. سألته عن موقع البستان. قال:

ـ بعد دقائق سنصل.

الليلة قمراء والجو دافىء.

ـ إنها تحبني. تستطيع أن تقتل نفسها إذا طلبت منها ذلك. أحياناً أضربها حتَّى أدميها. تذهب غاضبة فأقول لنفسي: هذه آخر مرة. إنها لن تعود، لكنها تعود بعد يوم أو يومين.

ـ وهل تحبها أنت؟

ـ أووه، لا أدري. لقد آلفتها. إذا كانت الالفة هي الحب فإني أحبها.

ـ لماذا تضربها إذن؟

توقفنا. فتح زجاجة وشربنا منها بالتناوب بعض الجرعات.

ـ أعتقد أنها تجد لذتها عندما أضربها. إنها تشاكسني. تفعل ما أنهيها عنه.

فكرت: لقد أصبح التفرسيتي يتصرف كرجل مع المرأة. قلت له:

ـ إنك محظوظ.

ـ لماذا؟

ـ لأنك لك امرأة تأتيك متَى تشاء وتضربها متَى تشاء.

ابتسم وقال مزهواً:

ـ أنت أيضاً ستكون لك امرأة.

ـ ربما.

ـ أنا أضمنها لك.

فكرت: التفرسيتي صار يضمن لنفسه ولغيره. «بالمال يستطيع الإنسان أن ينكح العالم». هذا ما قاله حشاش في مقهَى الطرانكات.

اقتربنا من المكان. سمعنا موالاً وتوقيعات على المندولينا. قال:

ـ لقد بدأوا.

توقفنا قدام باب من الخشب. دفعه فتراءت لنا أضواء فوانيس. سمعنا صوتاً:

ـ من هناك؟

رد عليه التفرسيتي:

ـ أخو التفرسيتي.

صوت جميل لشاب يموِّل:

يـا الليـل طُلْ أو لا تَطُلْ   لابُدَّ لي أن أسهرك
لو باتَ عندي قمري   مابِتُّ أرْعَى قمرك

رجال ونساء، جالسين تحت شجرة. البستان يعبق بروائح الزهور. رائحة مسك الليل قوية. قلت لنفسي: «هذه جنة». الأرض مفروشة

بالزرابي والوسائد. رحب بنا أخو التفرسيتي. أعطيناه الزجاجتين. قال:

ـ نبيذ موسكاطيل. عظيم.

جلسنا. كنا نحن الإثنين أصغرهم. كانوا قد شربوا. همس شاب في أذن فتاة. قامت واختفت بعيداً عنا. امرأة في حوالي الثلاثين تصب الخمر. بدأ عازف المندولينا لحن الرقصة يصاحبه شاب بالدربوكة وفتاة بالدف. صاح صوت الشاب الذي كان قد همس في أذن الفتاة:

ـ أنيسة! أنيسة! أنيسة!

تعالت أصوات بنفس الاسم. جاءت أنيسة في مشية راقصة. ترقص وتوزع علينا بسماتها. لم تكن تلبس سوى غلالة شفافة بلا رافعة للصدر. إن الشيطان يرقص الآن في جسدها. شيطان سكران. همس في أذني التفرسيتي:

ـ هل سبق لك أن شاهدت من قبل مثل هذا المنظر؟

ـ أبداً. حتَّى في السينما لم أشاهد فتاة ترقص ونهداها شبه عاريين مثل هذه.

ـ ها أنت ترى. أتمنَّى أن يفعلوا لها مثلما فعلوا لها في إحدى هذه السهرات. لقد أجلسوها عريانة في جفنة كبيرة وصبوا عليها غرافتين من النبيذ الاسباني ثم راحوا يملأون كؤوسهم ويشربون.

كلمات الصنعة الأندلسية تقول:

يا ليلة حزتِ الجمالْ   والسعدُ أقبَلْ
لَكِ المفاخر والكمال   والعزُّ أجمل

بلغتُ قصدي والآمال   في البدر الأكمل
جاد بانشراح وقْتُنَا   والبعد ممنوع
الفرح أقبل والهنا   والشمل مجموع

٧

صرت أفكر: إذا كان من تمنيت لـه أن يموت قبـل الأوان فهو أبي. أكره أيضاً الناس الذين يشبهون أبي. في الخيال لا أذكر كم مرة قتلتـه! لم يبق لي إلا أن أقتله في الواقع.

رفضت عشاء أشتهيه. السينما تناديني. فيهـا أنسَى همومي. سـآكل الدجاج بالجلبانة في خيالي. يدي ترتعش حين أمزق شريحة لحم أمامه. لماذا يحدجني بسخط؟ آكل بحذر مثل قط. أناهُ حاضرة حتّى في غيابه. ارادتـه هي اختيارنـا. لهذا السبب أفضـل أكـل حصتي عـلى انفـراد. ينبغي لك ألا تتناول طعـامك وحـدك. إنها عادة سيئـة. «ليست أسوأ من حضور أبي» هكذا أجيبها في خيالي.

أبي أقـرب منا إلى الإلـه وأقرب إلى الأنبيـاء والقديسـين. كثيـراً مـا تمنيت لو أنني أتصور طعاماً فأشبع. لقد جعلني أرتاب في كل ما يقـدم لي من طعام وأشياء أخرى.

ـ أبوك لن يتغدى معنا اليوم. أجلس إذن على المائدة وكل.

ـ لا أريد.

ـ أجلس وكل أَقُلْ لك.

أصرخ:

- كلا. هل تفهمين؟

- لماذا؟

- تعشيت دجاجاً بالبصل والزبيب واللوز.

- أين؟

وضعت سبابتي على جبهتي:

- هنا.

- إنك مجنون. احذر أن يدخل ويجدك تأكل وحدك.

حبي لها يمتزج بكراهيتي لأبي.

دخل. ها هو الآن قد حضر كوجبة الكرشة التي أشمئز منها منذ أن مات خالي ورأيت الناس يأكلونها بعد الجنازة.

- لماذا لا تأكل؟

- شبعان.

- كذاب. أنت لا تشبع. لا أريد أن تشبع كما تريد أنت.

- احلف أني الآن شبعان.

- أنا أعرفك جيداً يا ابن هذه القحبة.

- يعرفني الناس إذا كنت قحبة.

صفعها. صرخ في وجه أمي وأختي:

- توقفا أنتما عن الأكل وإلاّ سأجعلكما تأكلان الخرق.

قال لي:

- وحدك ستأكل كل هذا الطعام. (وحدك. ستأكل كل شيء. وحده، وحده، وحده...)

قلت حتّى لا يبدأ في ضربي:

- نعم، نعم.

- ابدأ إذن.

اعترضت أمي:

- هل جننت؟ ستقتله.

- فليمت وبعده أنت.

تتوسل إليه وهو واقف ونحن جالسون. بدا لي مثل عملاق يتحكم في الأقزام. نحن كنا أغنامه. يستطيع أن يبدأ بذبح من يشاء. أختي ارحيمو منكمشة على نفسها وأمي تبكي.

- بعد اليوم لن تعاف ما يُقَدَّمُ لك من طعام. صفعني. هدهدتُ بلساني باطن شفتي السفلَى. انسلاخ مؤلم.

- حتّى الجيفة لن تعافها بعد اليوم.

فمي يمتلىء بسيل دام دافىء، مالح وحلو. أحسُّ بتفاعلٍ يُوَسعُ معدتي. بدأت آكل. كراهيتنا تتعمق. لو كنت أقوى منه لجعلته يأكل الحلفاء.

أفقتُ في المستشفَى المدني. أتنفس ببطء. غسلوا لي معدتي وأنا في غيبوبة. المغصُّ يمزق معدتي.

صوته:

- أين هو ؟

- نائم .

- سيتعشّى معنا .

- أنه متعب . اشتغل معي كثيراً في الدكان .

تضلله . هذا ما لا يجعلني أكرهها كما أكرهه أو أتمنّى موتها كما أتمنّى له .

سمعته يتكلم وحده . لم أستطع أن أتراجع . لقد أحسّ بدخولي . وجدته جالساً وحده . سحنته شرسة . تجعّدتْ أساريره حين رآني . الغائبون حاضرون أيضاً في حضوره . يلعننا حاضرين وغائبين . يستحضرنا وقتما يشاء هو . أنه كالإله . من أعطاه هذه القوة؟

- أين أمك ؟

- تشتري السلعة من المخازن .

- من تركت في الدكان ؟

- ارحيمو .

- وأنت ؟

- لم ترد أمي أن أصحبها إلى المخازن .

- وتجيء الآن الى الدار لتأكل .

- أبداً .

- وإذن؟ أنا أعرفك . تحسبني ذهبت إلى ساحة «الفدان» . إنك لست إلاّ ولد قحبة . ألا أقول الحق؟ تأمل جيداً وجهي . (أنا

خافض رأسي) . كأنني لم ألدك . ربما نام مع أمك رجل آخر . يثق الإنسان في الشيطان ولا يثق في النساء . أرى أنك لا تشبهني في شيء . ربما تشبهها هي . أولادُ القحاب يشبهون أمهاتهم . إنها دائماً تدللك . تتواطآن عليّ . كلاهما يحاول أن يدافع عن الآخر . لا تباليان أبداً بما أقوله . أليس حقاً ما أقوله؟ تكلم أيها الملعون . أعرف أنك تكرهني . تتمنّى لو أني أموت . (فكرت : ها أنت بدأت تقول شيئاً معقولاً) . تحبها . لا تحب إلاّها . (فكرت : هي لا أكرهها . أما أنت فمن يحبك في هذا العالم؟) أرى هذا الحب في عينيكما معاً . تدللك كما لو أنك مازلت ترضع منها . حليبها لا يزال بين أضراسك . هي أمك . لكني أنا أبوك . إذا كان هناك من يجب أن تطيعه فهو أنا . لا أحد إلا أنا . الطاعة لي وحدي ما دمت حياً . أتسمعني؟ (أسمعك يا خليفة الله في أرضه التي يحكمها آباء مثلك) . لكن الكلام معك لا يجدي في شيء . تعتبرني غائباً حتّى حين أكون حاضراً . أتسمعني أيها المسخوط؟ (أسمعك يا ولي الله) . أنك لست إلا عضاض ثدي أمك .

ظللت ماثلاً أمامه كما يريد لي هو أن أكون .

- ماذا جئت تفعل هنا بالضبط؟

- أمي أرسلتني .

- لماذا ؟

- لأنظف الغرفة .

- إنك تذكرني بجميع الكذابين . إنها لا تتركك في الدكان لأنك تسرقها وتشاكسها . لا تصحبك معها إلى المخازن لأنك تأكل هناك متاع الناس . الباعة والحمالون يقولون لي عنك كل شيء . تحشو

جيوبك بالفاكهة. ما زلت أفكر كيف ينبغي لي أن أتخلص منك. (وأنا أيضاً أيها الأحمق..) أني أكرهك. (وأنا أيضاً أيها المجرم). الآن أخرج إلى الدكان. احرس مع ارحيمو حتىًّ لا يسرقها الأطفال.

هبطت الدرج أرتعد. لن أتخلف عن الذهاب إلى السينما هذا المساء. «أنه متعب. اشتغل كثيراً معي في الدكان». تضلله. هذا يمنعني من كراهيتها.

صعدت إلى السطح بحذر. إنه الآن صامت. ربما يحشو فمه بلقمة كبيرة. أنه يأكل كوحش.

ألتفت ورائي وأنا أربط الحبل. انبثق شبحه.

ـ الى أين أنت ذاهب يا ابن الحرام؟ تعال. إلى أين؟

ارتميت بلا تردد على أسلاك الكهرباء الغليظة. سمعته يسب. يتوعدني بيديه المطبقتين على عنقي في الفراغ.

ـ حدست هذا.

بصيرتي إلى أسفل. دختُ. سيخرج من المنزل ويتلقفني. سيعجنني. عقله مريض. تنفستُ بعمق. هويتُ مُغَمِضاً عينيَّ. تكورت فوق الحجارة والزبل. شيء حي خبط تحت رجلي:

ـ رأسي! من أنت؟ سارق؟ اقبضوه. قف هناك..!

كل ما أدوسه ينزلق تحت قدمي الحافيتين. لا أميز بين البطيخ الأحمر والأصفر والرؤوس إلاَّ عندما أسمع صراخاً تحت قدمي. صاح العساس الإسباني الذي جاء قادماً.

ـ آيه! قف هناك! تعال هنا!

جعلت الشيخ الإسباني يشطح مهدداً إيَّايَ بهراوته.

ـ أقول لك تعال! اللعنة عليك!

سمعت زعيق صفارة الحارس. شبح أحدهم يركض يائساً في القبض عليَّ. خمسة أو ستة منهم يتابعونني بحركات واشارات.

حمل إليّ السكون دمدماتهم المتلاشية. كففت عن الركض. لكني خشيت أن يعترض طريقي أحدهم من الجهة الأخرى. ربما يكون أبي الملعون بالذات. استأنفت ركضي بأقوى سرعة. فكرت: سأظل أجري حتىًّ أتهاوى. حتىًّ أسقط مثل كرة من البلاستيك يثقبها طفل.

في السينما أشعلت سيجارة. أهدهد بيدي بناني الدامية. تخيلت يدي أبي تطبقان عليّ. إنه في خيالي كغريم البطل على الشاشة الآن. أنا البطل. ضغطت على الزناد: طراطا طاط... طرا طاطاطا.. طران. أبي يموت. الرصاص يبرد في قلبه ومخه. الدم يسيل منه كما يسيل دم عدو البطل على الشاشة الآن. أطرافه ترتعش لآخر مرة. مات أبي في خيالي كما مات خصم البطل على الشاشة. هكذا تمنيت دائماً أن أقتله.

بعد خروجي من السينما اتجهت إلى ساحة الفدان. جلست على المقعد الجرانيتي مستعيداً قتل البطل لغريمه. أبي يتمرغ في دمه وأنا أنظر إليه بانتصار. أطفال وشبان وشيوخ نائمون على الأرض وفوق المقاعد كالأسماك الميتة على الشاطىء. حين يصل شخص يختار مكانه ثم ينبطح وينام. معي خمسة وسبعون بسيطة. لففتها جيداً وطمرتها في التراب، قرب ساق وردة خلف المقعد الذي سأنبطح عليه. نمت. حلمت أن أبي يطاردني. أحسست بيد تفتش جيوبي. لم أتحرك. تركت عيني نصف مغمضتين. الشخص أكبر مني. إذا أراد أكثر من تفتيشي

فسيكون لي معه شيء آخر. انقلبت ببطء على ظهري لأساعده على تفتيش كل جيوبي. انصرف. رأيته يُحَوِّم حول نائمين آخرين. حلمٌ ينتهي في تطوان وحلم يبدأ في طنجة. كنت ما زلت في تطوان وأنا أضيع في شوارع طنجة.

٨

أفقت مذعوراً. الغلام يهزني من كتفي ويقول لي:

ـ قم! البوليس! البوليس!

اختفت الستون المتبقية معي من جيبي ونزعوا لي حذائي دون أن أفطن. قلت للغلام ونحن نجري:

ـ سرقوني.

ـ كم؟

ـ ستون بسيطة.

ـ يخلفها الله.

خففنا سرعتنا. أضاف:

ـ أنت محظوظ.

كنا نلهث.

ـ ماذا تعني؟

ـ إنهم يغتصبون إذا لم يجدوا ما يسرقون.

قصدنا مقبرة بوعرقية. سألته:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ اتبعني واسكت. لا تخف من شيء.

دخلنا عالم الصمت الأبدي. فكرت: هنا مدفون أخي عبد القادر. حين يموت أبي سأزور قبره لكي أبول عليه. إن قبره لن يصلح إلاَّ لمرحاض.

مشينا فوق القبور. وقفنا قدام مقبرة عائلية مسورة. قفز الرفيق فوق السور. قال:

ـ اقفز، ماذا تنتظر؟

قفزت. أخذ يفرش الأرض بقطع كبيرة من الورق المقوَّى كانت متراكمة في زاوية. قال:

ـ هذا مكانك.

ثم شرع يفرش مكانه. تقرفصتُ وذراعاي على ركبتيَّ. جلس وسألني:

ـ من أين أنت؟

ـ ريفي.

ـ وعائلتك؟

ـ في تطوان.

ـ تسكنون هناك؟

ـ كنا نسكن هنا في طنجة ثم انتقلنا إلى تطوان.

ـ هربت؟

ـ نعم.

ـ حتَّى أنا هربت.

ـ من أين أنت؟

ـ من «جبل حبيبي».

فكرت: هو جبلي إذن.

ـ لماذا هربت؟

يبحث عن شيء في جيوبه.

ـ طردتني زوجة أبي.

ـ وأمك؟

ـ ماتت.

أخرج عقبين. سألني إن كنت أدخن. قبلت العقب. شممته: رائحة تبغ أشقر. أشعل لي. سحبت نفساً عميقاً. سعلت ثم غمرني ارتخاء لذيذ. حلقي ناشف. سألته:

ـ هل تعرف تطوان؟

ـ ليس كثيراً. هربت إلى طنجة بعد أن سكنا في تطوان حوالي شهرين.

ـ ماذا يعمل أبوك؟

ـ حمال. وأبوك أنت؟

ـ لا شيء. كان جندياً في الجيش الإسباني ثم هرب. قبضوه

وحكموا عليه بسنتين. من يوم أن خرج من السجن وهو يهش على الذباب في ساحة الفدان.

ـ ومن يعيل أسرتك؟

ـ أمي تبيع الخضر والفواكه في حي الطرانكات.

ـ وأنت، ماذا كنت تعمل؟

ـ أحياناً كنت أساعد أمي في الدكان وأحياناً أحترف أعمالاً أخرى.

ـ ولماذا هربت؟

ـ كان أبي يضربني كثيراً. أحياناً كان يعلقني من رجلي إلى فرع شجرة ويضربني بحزامه العسكري. كنا نسكن في عين خباز في ذلك الوقت.

ـ أنا أيضاً كان يضربني أبي عندما تشكوني إليه زوجته.

ـ وهنا. ماذا تعمل؟

ـ حمّال. أحياناً أسرق.

بعد لحظة قال:

ـ أنا متعب، سأنام.

كانت حوالي الواحدة بعد الزوال عندما هبطت الميناء. كنت حافياً. جد متعب. شربت كوب ماء في أحد مقاهي الميناء. رأيت هناك كشكاً لبيع البيصر. بسيطة واحدة وأشرب فنجان بيصرة. أحسست بوجع قاس في معدتي ماشياً تحت شمس كاوية. جنون الجوع والقيظ يفقداني رؤية الأشياء في وضوح. التقطت سمكة صغيرة جافة

ومُداسة. شممتها. رائحتها مقيئة. سلختها. مضغتها باشمئزاز. طعمها نتن. أمضغها وأمضغها دون أن أقوى على بلعها. حجارة ناتئة تؤلم أخمص قدمي. أمضغ السمكة كعلكة. تفلتها. رائحتها بقيت في فمي. ألوك فراغ فمي. ألوك وألوك. أمعائي تبقبق. تبقبق وتبقبق. دختُ. دختُ وتدفق الماء الأصفر من فمي وأنفي. تنفست بعمق. قلبي يخفق بعنف. بصلة ويزول هذا الدوار. العرق يسيل على وجهي، يسيل ويسيل. فكرت في الرفيق الذي أنقذني ليلة أمس من دورية حملة القبض على المتشردين. لماذا لم يوقظني في الصباح؟ ربما حاول فلم أستيقظ. لم يعرف أحدنا اسم الآخر.

صياد يأكل فطيرة محشوة. آكلها معه في خيالي. يستند على حافة مركب الصيد وأنا متعباً أنظر إليه، أنظر وأنظر إليه لعله يرمي شيئاً وآكل. قرد مربوط إلى صاري المركب يمسك بين يديه شيئاً يحاول بعصبية أن يكسره بأسنانه. تمنيت أن يكون ذلك الصياد يمضغ بلا طعم كما كنت أنا أمضغ سمكتي النتنة. ينظر شارداً إلى مباني طنجة القديمة. قلت له في خيالي: «ارم خبزك كما رميت أنا السمكة النتنة». ناداه رفيق في المركب. رمى الفطيرة إلى الماء ثم ذهب إليه. انبجس طعم الملح لذيذاً في فمي. أحسست بلذة تنعش جسدي الرخو. تعبي يخف. نزعت قميصي وسروالي وقفزت إلى الماء. طفوت تحت قطعة الخبز. ضحك الصياد. رفعت رأسي إليه. قبضت على الشطر وفتته في قبضة يدي. قِطَعُ الخراء تعوم حولي. بقع من زيت المراكب. سبحت نحو السلم الحجري. قطع أخرى من الخراء والخبز تطفو أمامي. اختلط في ذهني الخبز بالخراء. تسرب الماء القذر إلى حلقي. اختنق تنفسي. صعدت درجتين. انزلقت وسقطت في الماء. الماء يتسرب إلى حلقي. صعدت ناشباً أظافري في الصخر حتى دَمِيَ بعضها. عندما

بلغت آخر درجة تخيلتني أسقط مرة أخرى. جسمي مدبق بزيت المراكب. في أذني صمم. التقطت قميصي وسروالي وانصرفت. ناداني الصياد. التفت إليه. لوح لي بيده أن أعود. قهقهاته تخفت شيئاً فشيئاً. ناداني:

ـ ايه! يا ولد. تعال هنا. إنه فقط مزاح. تعال. هاك خبزاً آخر.

قال الصياد الآخر فوق المركب:

ـ مسكين الولد، مسكين!

لم ألتفت مرة أخرى إليهما. رأيت في الطريق بعض الأسماك الصغيرة المداسة. سمعت سقوطي في الماء. أظافري دامية. رفعت وجهي نحو السماء. إنها أكثر عراء من الأرض، أكثر عراء.

صفعتني الشمس الحارة. أرتعش من العياء. أرتعش وأرتعش. قط يسترخي في اطمئنان في قعدة ظليلة. يتأملني ناعساً بلا مبالاة. بطنه البيضاء ـ السوداء تعلو وتنخفض ببطء. التقطت سمكة أخرى صغيرة جافة، رائحتها أكثر نتْناً من السمكة الأولَى. أقيء الماء المالح. أقيء وأقيء حتى لم يبقَ إلاَّ صوت القيء، إلا صوته.

قصدت الشاطىء. فارغاً أحسني، رخواً. أتخيل أني سأسقط ولا أستطيع أن أقوم. لكي أنسَى ما حدث رحت أتأمل خطواتي على الرمل تلعقها الأمواج. رميت قميصي وسروالي على الرمل. أخذت أفرك جسمي بطحالب البحر والرمل. أفرك وأفرك. شعر رأسي أكثر تدبقاً من جسمي. ظلت أحك جسمي وأغوص في الماء حتى احمر جلدي. ظل جسمي متدبقاً لكن أقل قذارة.

في المساء، بعد تسكع طويل، انبطحت قبالة محطة القطار. فشلت

في حمل حقائب بعض المسافرين. كنت ما أكاد أقترب من أحد المسافرين حتى يصرخ في وجهي أحد الحمالين:

ـ ارجع إلى الوراء. امش من هنا. امش يلعن الفرج الذي خرأك. عمرتم لنا هذه المدينة السعيدة مثل الجراد.

شتموني، بصقوا عليّ ودفعوني. شاب أقوى مني ركلني وضربني على قفاي، لكني بقيت هناك عنيداً. مرة واحدة فقط استطعت أن أقنع مسافراً أجنبياً بحمل حقيبته الثقيلة. بينما كنت أحاول حملها هجم عليَّ حمال قوي، شاتماً ودافعاً إياي. حمل الحقيبة وبقيت هناك. اللعنة على الخبز. القط الذي رأيته في مرفأ مستودع الأسماك ربما هو أسعد مني. إنه يستطيع أن يأكل السمك القذر دون أن يتقيأ. سأسرق وأتسول، لكني في السادسة عشرة. السبتاوي كان على حق: «التسول مهنة الأطفال والشيوخ العجزة. عيب أن يتسول شاب قادر على السرقة إذا لم يجد العمل». هكذا قال لي.

جلس على مقربة مني شاب. أخرج علبة سجائر سوداء وسألني:

ـ أتدخن؟

هززت له رأسي وقلت بضعف:

ـ نعم.

انبعثتْ لدي رغبة في أن أُفْنِيَ هذا الجسد الجاف بأي شيء. حلقي ناشف وقلبي يخفق بوهن.

ـ مالك؟ مريض؟

ـ لا.

اقترب مني وأخذت منه السيجارة. أشعل وقيدة. قلت له:

ـ شكراً. ليس الآن.

نهض وقال:

ـ انتظرني حتّى أعود.

شممت السيجارة. إذا دخنتها فسأقيء من جديد دون أن يخرج من جوفي شيء. سمعت هدير طائرة، رفعت عيني إلى السماء، الهدير يتلاشى بعيداً دون أن أرى الطائرة. سمعت صوته يقول:

ـ هاك. يبدو أنك جائع.

اللفافة كانت قد سقطت من يدي. غفوت إذن. مدّ لي نصف خبزة محشوة بالسردين المصبر. رأيت في يده زجاجة نبيذ. أخرج من جيبه كأساً صغيراً وملأه. شربه وعمره ثانية. سألني رافعاً الكأس إلى فمه:

ـ من أين أنت؟

ـ من الريف.

شرب كأسه. لحس شفتيه بلذة.

ـ متى جئت إلى طنجة؟

ـ البارحة.

ـ وأين تنام؟

ـ في الشارع. في أي مكان أستطيع النوم فيه.

أكلت بلذة. بعض اللقمات أبلعها دون أن أمضغها. عمر الكأس

ومدها لي. شربت الكأس دفعة واحدة. الأشياء بدأت تستعيد صفاءها في ذهني. دخنت وشربت الكأس الثانية. عندما شربت الكأس الثالثة قال لي:

ـ هل تريد أن تنام في بيتي؟

تطلعت إليه. عيناه ليستا بريئتين. اللعنة على مثل هذا الإحسان!

ـ بارك الله فيك. لي عم يسكن في عين قطيوط. سأفتش عن داره وأنام عنده.

ـ كما تريد.

نفض الكأس ووضعها في جيبه ثم نهض وقال:

ـ إلى اللقاء. اعتن بنفسك.

لم أحقد عليه. لقد أسْكَتَ عصافير بطني. نهضتُ ومشيت في شارع النخيل. المطاعم غاصة بالناس. رائحة الشواء في الهواء. نسيم المساء ينعشني. الأشياء تصفو أكثر فأكثر في ذهني. الرجال يغازلون مؤخرات النساء الجميلات. توقفت سيارة حذاء الرصيف الذي أمشي عليه. عجوز يشير لي أن أقترب منه. اقتربت من السيارة. فتح الباب وقال بالإسبانية:

ـ اركب!

ركبت إلى جانبه. ماذا يريد مني؟ هذه هي المرة الأولى التي أركب في سيارة فخمة مثل هذه. يقود ببطء. قلت له بالإسبانية:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

قال راسماً بيده حركة دائرية:

ـ جولة، جولة قصيرة.

إنه أيضاً يريد مني شيئاً غير عادي لكن لا خوف منه. أستطيع أن أدافع عن نفسي إذا لم يعجبني ما يريده مني. سألني:

ـ من طنجة؟

ـ أنا من تطوان.

كنا نتجه إلى إحدى ضواحي المدينة. إنه «حساس». هذا لا شك فيه. أوقف السيارة في مكان مظلم. في طريق مشجرة. المدينة خلفنا متلألئة.. أشعل ضوء السيارة. ها هي الجولة القصيرة تتوقف هنا. لامس فتحة سروالي بحركة لطيفة. الجولة الحقيقية تبدأ. يفك زرا تلو زر بمهل. أضاء ضوء السقف وانحنى عليه. أنفاسه تدفئه. لحسه ثم أدخل نصفه. أخرجه وأدخله وشيئي يزداد انتصاباً. لم أجرؤ أن أنظر إلى وجهه:

ـ برافو! برافو! ماتشو! Macho

يلحسه، يمصه، يهيج منبت خصيتي بأصابعه. أحسست بأسنانه وإذا هو عضه من كثرة اللذة! لكي أسرع في القذف تخيلتني أغتصب أسية في تطوان. قذفت في فمه. همهم مثل حيوان بلذة. أخرج منديله ومسح فمه الذي كان يقطر بحليبي. وجهه محتقن. عيناه جاحظتان، شفتاه مرتخيتان.

زررت فتحة سروالي. شبكت ذراعي حول صدري كأن شيئاً لم يحدث. إن النساء كثيرات. لماذا هو الإنسان لوطي؟ هكذا فكرت.

أخرج علبة سجائر ومدَّ لي منها سيجارة. أشعل لي ولنفسه. فتح الراديو. انبعثت موسيقى هادئة، جميلة. ارتخى على مقعده وأخد ينظر

حالماً من خلال واجهة السيارة. أعجبني الفصل الموسيقي. أنا أيضاً ارتخيت وفكرت في وهران وعملي مع مونيك الجميلة. إنها اليوم مجرد اسم. قد أذكره وقد لا. الفرح والحزن يتصارعان في نفسي. تملكتني رغبة في البكاء. ماذا أفعل مع هذا العجوز الذي مصَّني؟ سأحقد على نفس والناس إذا ظللت هكذا.

في طريق عودتنا لم نتكلم. أعطاني خمسين بسيطة وأنزلني قرب المكان الذي أخذني منه. صافحني قائلاً:

ـ إلى اللقاء.

يده ملساء. رخوة. شيعته بيدي قائلاً:

ـ إلى اللقاء.

استنشقت هواء مشحوناً بدخان سيارته. حوالي خمس دقائق يمصون خلالها للواحد شيئه ويعطونه خمسين بسيطة. هل كل من هم مثل هذا العجوز يمصون؟ حرفة جديدة تُضَافُ إلى الحرفتين الأخريين: التسول والسرقة. أخرجتُ ورقة الخمسين بسيطة وفحصتها. أعدتها إلى جيبي. إن شيئي يمكن له أيضاً أن يرتزق ليعينني على العيش. يمكن له أيضاً أن يتلذذ. أذلك العجوز يجد في مص أزباب الناس نفس اللذة التي أجدها أنا في مصِّ صدور النساء؟ ما زال دافئاً ولزجاً يقطر بين فخذي. هكذا يقحب الناس إذن.

في السوق البراني دخلتُ مطعماً صغيراً قذراً. طلبتُ صحناً من السمك المقلي ونصف خبزة بيضاء. قبالتي رجلانِ. يبدو عليهما أنهما يعملان في أشغال البناء. فوق الطاولة الجالس إليها إبريق من الصفيح كان من قبل صفيحة زيت السيارات. نشرب منه ماءً دافئاً ثلاثتنا

بالتناوب. تنبعث من داخله رائحة كريهة. حول الطاولتين الأخرين أشخاص آخرون بائسون. كلنا نأكل بصمت. رنين الملاعق والصحون وأدوات الطبخ وصوت المطعمي يأمر الغلام الخادم أن يفعل عملاً ما أو يتركه. أحياناً تسمع تجشآت الذين انتهوا من الأكل تعقبها: «الحمد لله» ممددة الصوت.

دفعت لصاحب المطعم أربع بسيطات وخرجت. تلاشى عيائي. امرأة جميلة تمرّ وهو ينتصب. أغانٍ مصرية ومغربية تسمع من المقاهي والمطاعم. قرب مقهى وقف شاب سكير، عاري الصدر، يجدف على الله بصوت صارخ ناظراً إلى السماء. خرج شابان من المقهى وأحْنَيَا له رأسه وصبَّ عليه أحدهما جرة ماءٍ ثم سحباه إلى داخل المقهى. الشابان أيضاً يترنحان. أيكون الغلام الذي أنقذني أمس في المقبرة الآن؟ إذا لم أجده فهل أستطيع أن أنام هناك وحدي؟ اشتريت من البقال خمس سجائر «فيليب موريس» مفردة. حينما اقتربت من مدخل المقبرة فكرت: أن المقبرة هي المكان الوحيد الذي يمكن للواحد أن يدخل من بابه في أية ساعة يشاء، نهاراً أو ليلاً، دون أن يطلب من أحد اذناً بالدخول. معهم الحق، لماذا الحارس؟ ليس فيها أية ثروة. أن الموتى لا يتاجرون، لا يخافون، لا يحزنون ولا يتخاصمون، كل ميت في مكانه. حين يتهدم قبره يدفنون مكانه ميتاً آخر. إذا كان العالم قديماً فإن الأرض كلها قبور.

قِطَعُ الكرتون ما زالت متراكمة في مكانها. هل قبضوه؟ فرشتُ مكاني. ربما يجيء. أشعلت سيجارة. فتلت ثلاث وقيدات وأدنيتها من الشاهد الرخامي. استطعت أن أفهم من الأرقام أن الميت (لم أعرف أهو رجل أم امرأة؟) قد عاش ٥١ عاماً. هناك أيضاً نجمة سداسية.

نجمة يهودية على قبر مسلم يا للغرابة! ما معنَى أن يعيش الانسان ثم يموت؟ قبور يُعْنَوْنَ بها وأنا فوقها. ألهذا معنَى؟ عضوي التناسلي يُبَاعُ بخمسين بسيطة. ما معنَى هذا؟ الأسئلة كثيرة، لكني لا أفهم معناها بوضوح. كل ما أعرفه هو أن الحياة يجب أن أحياها. دخنت العقب بلذة ثم أطفأته ونمت.

استيقظت باكراً. غلام جديد ينام في مكان ذلك الغلام الذي أنقذني من حملة المتشردين. تحسست ما تبقّى معي من الخمسين بسيطة في جيبي. ما زالتْ بقية البسيطات في مكانها. كان على حق ذلك الغلام: «ليس هناك مكان أكثر أماناً من المقبرة». أعتقد أن الناس يحترمون أنفسهم أمواتاً أكثر مما يحترمون أنفسهم أحياء.

اشتريت من باب الفحص نَعْلاً مطاطياً بخمس عشرة بسيطة. قدماي قذرتان ومتعبتان. تناولت افطاري في مقهى شعبي تفوح منه رائحة الكيف ومأكولات الصباح. دخنت اللفة الأولَى بلذة. غالباً ما تذكرني سيجارة الصباح بتلك التي دخنتها لأول مرة. يوم جديد مع قليل من اليأس وكثير من الأحلام. سأسرق في السوق كما فعلت مع السبتاوي وعبد السلام. سأحاول قبل أن ينفذ ما بقي لي من النقود.

دخلت السوق. امرأة أجنبية تدفع ثمن مشترياتها ثم تعيد محفظة نقودها الصغيرة المحشوة بالأوراق المالية إلي حقيبتها. انتبهتْ إلى نظرتي نحو حقيبة يدها. شدتها بحرص. قالت لي نظرتها اللطيفة: ألا تحشم؟ خجلتُ وخرجتُ من السوق. أنه بؤس العالم يا سيدة العالم. أن الذين يملكون هم أيضاً لا يحشمون. أنهم يشتروننا بأبخس الأثمان. ربما أنت لا تحتاجين أن تبيعي نفسك.

قضيتُ النهار كله تبتلعني وتتقيئوني الدروب. كانت أجساد النساء

التي رأيتها قد هيجتني بجنون. دخلتُ مرحاضاً عمومياً واستمنيت على إحدى المؤخرات التي بقيت منطبعة بتشكيلها الجميل في ذهني أكثر من الأخرى. في المساء اكتشفت أنه يمكن لي أن أنام في «فندق الشجرة». بسيطة واحدة يدفعها الداخل ثم ينام حيث يشاء. الاصطبل الكبير تغطيه سقيفة من الأسمنت ينام فوقها الناس وتحتها الدواب. مقهى، مطعم، حوانيت، بيوت صغيرة للايجار، بغايا، دكاكين خضر وفواكه، اصطبل يشبه مدينة صغيرة. صاعداً الدرج إلى السقيفة اصطدمت بسكير. امتدت يده إلى وجهي ملاطفاً وقال:

ـ آ، الغزال! فأين ماشي أهذَا الغزال؟

أبعدتُ يده بعنف. قفزتُ درجتين صاعداً بخوف. أطْلَقَ قهقهات:

ـ كتضرب ياك العايلْ! كتنفرا (يمسك في يده زجاجة نبيذ خاوية). استنني. غادي نمشي نعمر هاد القريعة ونرجع دابا. عندك تمشي.

هبط مقهقهاً وصعدت خائفاً. سمعته يقول:

ـ جابك الله هاد الليلة. يا لطيف! أنا راجع دابا. والله ما تفلت من يدي هاد الليلة.

عشرات الأشخاص منبطحون وجالسون فوق أرض السقيفة. أكثرهم ينامون. يشربون، يدخنون الكيف، يثرثرون ويغنون. سكير يضم إليه غلاماً ثملاً، يبوسه على خده. قال له أحدهم:

ـ ماشي دابا. خلي العايل عليك. من بعد، من بعد أعمل معه اللي بغيتي. هذي هي البسالة. أتقول عمرك ماشفت العواول.

لن أنام هنا. أفضل النوم في المقبرة على أن أنام في هذا البورديل.

حينما استدرت لكي أهبط سمعت شخصاً يناديني.

ـ أيه! أديك الغزال. زيارتنا بركة. أجي تشرب شي كاس معنا، أجي، آش عائدك؟ ماغاديشي ناكلوك.

قلبي يخفق بعنف. يجب أن أشتري سكيناً أو عدة شفرات حلاقة. هبطت الدرج في الظلام الخفيف مسرعاً. توقفت أمام اصطبل الحيوانات. أتجهت إلى ركن وجلست مسنداً يدي على ركبتي متقرفصاً. دخنت واحدة وحلمتُ قليلاً. هل تعمد الله أن يخلق هذا العالم على هذا الشكل من الفوضى والتنوع؟ رائحة الحيوانات كريهة. على بعد خطوات من مكاني فرس واقفة. شبكت ذراعي فوق ركبتي ونعست. نمت جالساً خائفاً من أن يغتصبوني. أحسست برشاش حارٍ كريه الرائحة يسقيني. أنتفضت برعب. شتمت العالم. الفرس تكمش فرجها وتفتحه وتتحرك إلى الوراء. نهضت بسرعة وابتعدت عن المكان.

عند الباب سألني البواب:

ـ هل ستعود؟

قلت له بصوت غاضب:

ـ كلا، لن أعود إلى هذا المكان القذر.

ـ مالك؟ هل فعلوا لك شيئاً؟

ـ بالت عليّ فرس.

ـ لماذا نمت بين كوارعها؟ لماذا لم تنم على سطح السقيفة؟ امشِ إلى الحمام. لا تنم قبل أن تغتسل حتّى لا تمرض.

قلت له:

ـ انصح نفسك.

اقفل الباب من خلفي بصخب. الجو دافىء. الطرق خالية. هل اذهب إلى الحمام كما قال؟ وثيابي؟ بَوْلُ الفرس تسرب إلى كل جسمي. بدأت أحك جسمي. قرب باب المقبرة اليهودية القديمة رأيت ثلاثة مشردين سكارى يشربون ويغنون. ناداني أحدهم:

ـ آجي! فين ماشي؟

التفت بسرعة خلفي.

ـ آجي أذاك اغزال؟ آجي عندنا تجلس معنا! ما تخاف شي!

نهض مترنحاً قصدني. قال له أحد رفيقيه:

ـ اتركه عنك. لسنا في حاجة الآن إلى أولاد.

ركضت نحو السوق البراني. التفت فرأيت السكير يعود إلى رفاقه.

اشتريت صابونة من السوق الداخلي. كان عامراً بالسكارى والبغايا واللوطيين والشحاذين. في طريق البحرية، قرب الجامع الكبير، أوقفني شرطيان مغربيان باللباس الرسمي. قال لي الأول:

ـ أوراقك.

ـ ليس عندي أوراق.

ـ من أين أنت؟

ـ من تطوان.

سألني الثاني:

ـ أين تسكن في تطوان؟

ـ في حي الطرانكات.

ـ في الطرانكات بالذات؟

ـ نعم، وراء حمام اليهودي.

ـ هل تعرف مولاي علي؟

ـ نعم، أنه جارنا، يبيع الخضر قدام دكاننا.

ـ وماذا تعمل أنت هنا؟

ـ لا شيء. جئت أبحث عن عمل.

ـ وأين أنت ذاهب الآن؟

ـ كنت نائماً في فندق الشجرة وبالت عليّ فرس.

ـ فرس؟

ـ نعم، فرس: كنت نائماً في اصطبل الحيوانات وبالت عليّ فرس.

تبادلا نظرة وقال لي الثاني:

ـ هل تعرف دار الدباغ؟

ـ لا أعرفها.

ـ آجي معنا.

عند المنعطف نعت لي دار الدباغ وقال:

ـ ادخل هناك. ستجد عينا ماؤها دافىء، اغتسل جيداً وفي الصباح اغسل ثيابك.

بعد اغتسالي صوبنت سروالي وقميصي عافساً عليهما بقدمي. من المقهَى تسمع أصوات تحتج على الغش في لعب الأوراق. خرج رجل من المقهى يترنح وقال لي:

ـ ماذا تفعل؟ هل أنت أحمق؟ ليس حسناً غسل الثياب في الليل. أنه فأل سيء.

أنفاسه جد مخمورة. توقفت عن العفس وقلت له:

ـ بالت عليّ فرس في فندق الشجرة.

ـ فرس؟

ـ نعم.

ـ همٍ م م... ! اغسل اذن نفسك وثيابك حتَّى لا تمرض. أن الماء يزيل حتى الجذام.

عندما انتهيت حرت في تجفيف السروال والقميص. عصرتها ولبستها وخرجت.

قرب محطة القطار أخذت أتمشّى ذهاباً وإياباً لعل ثيابي تنشف قليلاً. أنام في إحدى عربات القطار القديمة غير المستعملة أم أذهب إلى الشاطىء؟ فوق الرمل لن يسألني أحد، لكن في عربة القطار قد يقبض عليّ الحارس الليلي. تذكرت ما قاله ذلك الغلام: «أنهم يغتصبون الواحد إذا لم يجدوا ما يسرقون له». كان في جيبي أكثر من عشرين بسيطة. لكن قد يسرقون ويغتصبون سواء على عربة القطار أو على رمال الشاطىء. يمكن لهم حتَّى أن يذبحوا ضحيتهم. ربما عربة القطار أسلم. قفزت فوق الحاجز. الأحجار الناتئة تؤلم أخمص قدمي. خشيت أن يتمزق قاع نعلي المطاطي ـ القهاشي. سرت بحذر وبطء.

قفزت إلى عربة البضائع. أشعلت وقيدة. وإذا اعتدى أحد عليّ؟ نزلت إلى الأرض واخترت حجرين حادين. حين صعدت في المرة الثانية سمعت حفيف تمزق في سروالي. بصقت شاتماً العالم. استلقيت. وضعت حجراً في قبضتي وتركت الآخر قرب رأسي. لا بد لي من شراء سكين. سكين أو شفرات الحلاقة. يجب أيضاً أن أعثر، في هذه المدينة ـ المتاهة، على مفلس مثلي. ماذا يكون قد حدث لذلك الغلام الذي أنقذني من حملة التفتيش على المتشردين؟

محمّد شكري

الخبز الحافي

سيرة ذاتيّة روائيّة

١٩٣٥ - ١٩٥٦

٩

كنا في مقهَى التشاطو. خسرت آخر فلس في لعبة «العيطة». عندما بدأنا اللعب كان صديقي الكبداني يربح وأنا أخسر. بقي هـو الرابـح وأنا الخاسر. بقيت عندي خمس وعشرون بسيطة حين قال لي:

ـ ما عندك حظ في هذا اليوم. توقف عن اللعب.

قلت له بجفاف:

ـ انصح نفسك. أنا أعرف ما أفعله بنفسي وبفلوسي.

كـانت حوالي الثـانيـة عشرة والنصف بعـد الـزوال حـين سلف لي الكبداني خمس بسيطات. اشتريت ثلاث بسيـطات من الكيف وطلبت شايـاً أخضر ببسيطتين.

من خلال شباك السدة أرى السوق الكبير. أنه يوم الأحد. الساحة عامرة بالبائعين الجوالين والمتشردين والمتجولين الذين لا يشـترون شيئاً. الريح تهب والسماء غائمة. المطاعم والمقاهي والمتاجـر المغربيـة مقفلة. فوق أبواب بعضها رفعت الرايـة المغربيـة والرايـة السوداء. أصحـاب بعض المقاهي الشعبية استغلوا هذا اليوم للقمار. عندما سألت في هـذا الصباح التشاطو عن هذه المناسبة الوطنية قـال لي بصوتـه الذي يخـرج نصفه من فمه ونصفه من أنفه:

ـ أنه اليوم المشؤوم!

ـ ما معنَى اليوم المشؤوم؟

ـ ألا تعرف معنـاه؟

ـ لا.

ـ ٣٠ مـارس (آذار) ١٩١٢ هو اليـوم الـذي عقـدت فيـه الحـماية الفرنسية مع المغرب في عهـد مولاي عبـد الحفيظ. اليوم، ٣٠ مـارس ١٩٥٢ تمر أربعون سنة على حماية فرنسا للمغرب. لهذا صـار يعتبر ٣٠ مارس اليوم المشؤوم.

ـ واليوم ماذا نريد نحن المغاربة من الفرنسيين؟

ـ نريد منهم أن يخرجوا. اليوم تنتهي عقدة الحماية.

ـ هل نطالب أيضاً أن يخرج الاسبانيون؟

نظر إليّ نافد الصبر قائلاً:

ـ اسمع، ليس عندي وقت الآن للكلام الكثير في هـذا الموضـوع. اطلع إلى السدة واستقصِ هناك بعض الرفاق عن هذه الأشيـاء.

الكبداني كان قد ربح حوالي ثلاثمائة بسيطة عندمـا أعلن توقفـه عن اللعب. قال له اللاعب الأول بغضب:

ـ أكمل معنا اللعب.

ـ وإذا لم أرد أن استمــر في اللعب. هل أستمر معكم بالقوة؟

ـ نعم أكمل.

ـ أنا جائع. سأذهب لأتغدى.

إحتج الأشخاص الثلاثة تباعاً:

ـ كلنا جائعون، إلعب معنا.

ـ وإذا كنت لا تـريد أن تكمـل معنا اللعب فـاقسم معنا مـا ربحته لنا.

ـ نعم، افهم نفسـك، هذا هـو أحسن حـل، إذا لم تكن راغبـاً في استمرار اللعب.

ضحك الكبداني هازئاً. أخذ من «السبسي» الذي عمـرته لـه. قال الثالث:

ـ لن تكون النهاية بخير إذا لم تكمـل معنا اللعب. لا بـد أن تكمل معنا اللعب.

صاح التشاطو من أسفل المقهَى:

ـ لا أريد الصداع في قهوتي. أخرجوا إلى الشارع وتقاتلوا.

كان التشاطـو قد تخلى عن قبض فائدة الربح في كل لعبـة بعدمـا انسحب معظم اللاعبـين. لقد تـركهم يلعبون اللحـظات الأخيرة كـما هي العـادة. سمـع صـوت صـاخب: ـ أيهـا النـاس! أيهـا المغـاربـة المواطنون! إنكم تعرفون أن هذا اليوم هو اليوم المشؤوم. في مثـل هذا اليـوم، منذ أربعـين عامـاً، وبالضبط في عـام ١٩١٢ عقـدت الحـماية الفرنسية على المغرب ولم نعد أحراراً.

تزاحمنا على شباك السدة. قال الكبداني:

ـ إنه المرواني الأحمق بائع الأرغفة المقلية الباكستانية.

ـ ماذا يقول للناس؟

ـ ماذا سيقول؟ أحمق يهرج على الناس!

ـ الأحمق هو أنت. إنه يعرف ما يقول.

ـ يقولون إنه مخبر يعمل مع المخابرات الإسبانية.

ـ ليس غريباً، لكنه الآن يدافع عن المغاربة.

ـ ليس من حقنا أن نتهمه.

ـ أؤكد لكم أنه يعمل مع منظمة سرية يمولها الإسبانيون الذين يريدون أن يلغَى النظام الدولي في طنجة ليحكموا فيها وحدهم.

صاح التشاطو:

ـ كفوا عن مثل هذا الجدال الخاوي. أنا لا أريد هذه المجادلات السياسية في قهوتي. أخرجوا إلى السوق وتناقشوا وتصايحوا.

صاح المرواني بصوت صاخب، رافعاً يديه بحركة حماسية في الهواء:

ـ الجلاء للاستعمار!

الجموع:

ـ الجلاء! الجلاء!

المرواني:

ـ عاش المغرب حراً مستقلاً!

الجموع:

ـ عاش!

المرواني:

ـ يسقط الخونة!

الجموع:

ـ يسقط!

المرواني:

ـ الجهاد في سبيل الله!

الجموع:

ـ الجهاد! الجهاد يا عباد الله!

صعدت امرأة «جبلية» فوق صندوق خشبي وأخذت تزغرد. تصايحت نساء أخريات.

هبطنا من السدة ووقفنا نطل من خلال حاجز المقاعد والطاولات المتراكمة فوق بعضها. قال التشاطو من فمه وأنفه:

ـ إرجعوا إلى السدة أو اخرجوا.

قفزت فوق الحاجز إلى الخارج. قلت للكبداني:

ـ أتأتي أم لا؟

تردد ثم قفز. قال له أحد اللاعبين الخاسرين:

ـ إرجع إلى مكانك. لا تهتم لما يقوله وجه الزب.

قلت لشاتمي:

ـ وجه الزب هو وجه أمك.

بصق عليّ. بصقت عليه. رمى علي مقعداً. تفاديته. قلت له:

ـ تفو على فرج أمك!

أراد أن يقفز. التقطت المقعد وأعدته له. تفاداه. لم يتركوه يقفز. قال لي:

ـ سترى فيما بعد. سأريك من أنا. سأبصق لك في ثقب مؤخرتك عندما أقبضك.

قلت له قابضاً بجماع يدي على أسفل بطني:

ـ ستقبض لي في هذا.

صرخ التشاطو:

ـ أخرجوا إلى الخارج وتقاتلوا. إتبعوهما.

إنسحبنا أنا والكبداني. كان في جيبي مقشط وشفرتان للحلاقة. كنت متحمساً لاستعمالها. إمّا أن أخسر وإما أن أربح. هذا ما خططته لحياتي في هذه المدينة الممسوخة.

ـ إنهم يريدون أن تبقَى معهم هناك لعلهم يستردون منك ما ربحته لهم.

ـ لست صبياً. أعرف جيداً هؤلاء أولاد القحاب.

ـ كانوا يخادعونك في اللعب. هل فطنت؟

ـ فطنت، لكني كنت أتركهم يغشون ما دمت أنا الرابح.

الجموع تتكاثر. رأينا المرواني يشير إلى الجهات التي ينبغي لهم أن يهاجموها. عندما اقتربنا من الجموع قال لي الكبداني:

ـ معظم هؤلاء الذين تراهم ليسوا من طنجة.

ـ ومن أين جاءوا إذن؟

ـ أنظر إلى سحناتهم. إنهم من «الريف».

ـ الأمر دبره الإسبانيون إذن.

ـ هذا ما قلته في المقهَى.

بدأت الجموع تتجه نحو الحافلات العمومية. كان هناك ركامات من الحجارة وطريق محفرة تعمل فيها الأشغال العمومية. أخذوا يحشون جيوبهم وقلنسوات جلاليبهم بها. تفرقوا في أربعة اتجاهات رئيسية: طريق النظام، عقبة الشاطئ، طريق باب الفحص وطريق السهارين. جماعة هاجمت مركز الشرطة الجنائي بالحجارة. التخريب بدأ في كل مكان عبر السوق. الكبداني وأنا اتجهنا مع الجماعة التي هاجمت طريق السهارين. حجارة تسقط على الشرطي. سقطت خوذته البيضاء. الدم يسيل على وجهه. غطَّى وجهه بيد ووضع يده الأخرى على حاملة مسدسه. هرب نحو المخفر. يطاردونه بالحجارة. حجر يشبه ساعة كبيرة ثابتة في أعلى جانب باب متجر هندي. الساعة تشير فيها إلى الواحدة والربع. واجهة متجر الأحذية يكسر. قلت للكبداني:

ـ لنأخذ بعض الساعات وآلات التصوير.

ـ كلا.

ـ لماذا لا؟

ـ لا نعرف بعد ما سيحدث. من المحتمل أن يلقانا رجال الشرطة ويفتشونا.

ـ أنظر الآخرين كيف يأخذون الأشياء.

ـ ليفعلوا ما يشاءون. إذا كانوا هم يلقون بأنفسهم في بئر فهل ينبغي لنا أن نلقي بنفسينا معهم؟

وجهات أخرى تكسر.

ـ إن مثل هذا المثل باطل. هذا جبن.

ـ أسرق وحدك إذا شئت، لكني سأذهب وحدي.

طلقات نارية في ناحية المخفر الجنائي. قال الكبداني:

ـ لقد بدأ رجال البوليس يطلقون النار على الناس.

صرخات. هروب. متجر الأحذية «ريكس» تكسر واجهاته. حشد كبير من المتمردين يفرون نحو مكاننا حاملين الحجارة في أيديهم. صرخات النساء والأطفال. الباعة يتركون دكاكينهم. جذبني الكبداني من ذراعي:

ـ تعال. إسرع قبل أن نقتل هنا.

إختبأنا وراء صندوق صراف يهودي قرب باب السوق. تكسير المتاجر مستمر عبر طريق ساحة «بيريث جالدوس». الطلقات النارية تقترب من مكاننا. صرخات وركض. سمعت طلقات قربنا. رفعت رأسي. رجل يتمرغ على الأرض والدم يسيل من رأسه. شرطي مغربي يجري شاهراً مسدسه في يده بعصبية وحيرة. قال الكبداني:

ـ إحن رأسك ولا تفضحنا.

ـ أنظر من خلال هذا الشق. هل ترى جيداً؟

ـ إني أرى، لكن أسكت.

الجموع تجري صارخة. طلقات نارية سريعة تقترب منا. أراد أن

يختبئ معنا شاب مغربي. دفعناه عنا وقلنا له أن يذهب إلى مكان آخر.

ـ إمش بسرعة. مكاننا ضيق.

توقف ثلاثة شبان عن الركض. إثنان ساعدا زميلهما القصير على الصعود فوق سقيفة دكان. طلب منهما أن يختفيا بسرعة.

الطلقات النارية المتتابعة تقترب منا. صراخ وصوت جسم يسقط على الأرض. قلت للكبداني:

ـ قتلوا واحداً آخر.

ـ إني أسمع وأرى.

ظهر شرطي حاملاً رشاشاً. قفز الشاب القصير صارخاً فوق الشرطي. رفعنا رأسينا معاً. الشرطي مكفئ على وجهه والشاب فوقه يضربه على رأسه بقبضة يده كما لو أنه يدق مسماراً. قال الكبداني:

ـ هل تعرف ذلك الشرطي؟

ـ من هو؟

ـ إنه المفتش بارثيا (Barcia). أبوه مغربي وأمه إسبانية.

نهض الشاب وأمسك الرشاش الذي سقط على بعد خطوات منهما. حاول، بحركات عصبية، أن يستخدمه. لم يعرف كيف يشغله. المفتش بارثيا ما يزال مغشياً عليه. رفع الشاب الرشاش إلى فوق وخبطه على الأرض بقوة شاتماً الرشاش:

ـ يلعن دينك.

ظهر شرطي. أطلق من مسدسه طلقات متتابعة. استدار الشاب

صـارخاً. أطلق الشرطي ثـانية عـلى بطنـه. سقط الشاب ملتـوياً عـلى الأرض. قلت:

ـ لقد اخترق الرصاص ظهره وبطنه.

ـ إني أرى كل شيء.

ـ لم أر قط إنساناً يموت بهذا الشكل إلاّ في السينما.

ـ ها أنت تراه الآن.

ـ لا بد أنهم يقتلون الناس بهذا الشكل في أماكن أخرى.

ـ وماذا تظن، هل سيوزعون عليهم الحلوى.

جبين الكبداني عرقان. قلت له:

ـ أضبط نفسك قليلاً.

ـ ماذا تقول؟ إبلع لسانك.

ـ إنك ترتعد.

قال بغضب:

ـ أنا أرتعد؟ ألن تبلع لسانك؟ هـل تريـد أن يخرجـوا لنا مصـاريننا هنا مثل ذلك الشاب هناك؟

ـ أنت خواف.

ـ طيب، لكن إبلع لسانك.

ظهر شرطي ثالث. طلقة في الهواء. سـاعد الشرطي الثـالث زميله على إنهاض المفتش. إلتقط الشرطي الثاني الـرشاش والقبعـة ووضعها له على رأسه سائلاً إياه:

ـ هل أنت بخير؟

قال المفتش دائخاً:

ـ لا بأس. لا بأس.

قال له الشرطي الثاني:

ـ لقد أطلقت على ذلك الكلب.

إقتربوا من الشـاب. حركـه أحدهم بقـدمه ثم ابتعـدوا مسرعين في اتجاه السوق الداخلي. قال الكبداني:

ـ لنغادر هذا المكان قبل أن يكتشفونا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان.

طلقات أخرى تقترب نحو مكاننا. قال:

ـ هيا، طِرْ!

خرجت أنا الأول. قلت:

ـ أنظر، إن جسمه يتحرك.

صاح، جاذبا إياي من ذراعي:

ـ طر! هل تريد أن يطيروا لنا رأسينا؟

رأينـا الشرطة الثـلاثة يسرعـون نحو الـسـوق الداخـلي الـذي يبـدو خالياً. ركضنا في طريق المنصور. في عقبة الفـرنسيس توقف الكبـداني ليبول. أحسست أيضاً بـرغبة التبـول. الهاربـون يجرون قـدامنا ونحن نبول على باب متجر.

في رحبة «السقاية» رأينا شاباً حاملاً في يده اليمنى قفة يميل جانبه الأيمن على ثقلها. قال الكبداني:

ـ إننا محظوظان.

ـ لماذا؟

ـ ها هو قابيل. سنصحبه إلى كوخه في سيدي بوقنادل.

كان قد حدثني عنه وعن عمله معه حمالاً للبضائع المهربة.

ـ هل هذا هو المهرب الذي يلعب بالمال الكثير كيفما يشاء كما تقول عنه أنت؟

ـ نعم، إنه هو، عنده مال يكفي لتغطيتنا به من القدمين إلى الرأس.

فكرت: إن منظره يوحي أنه لا يملك مائة بسيطة في رأسماله. الساحة خالية. بين حين وآخر يعبرها أشخاص مسرعين. صاح الكبداني:

ـ قابيل!

توقف قابيل. وضع القفة على الأرض. سأله الكبداني:

ـ إلى أين أنت ماش؟

ـ إلى الكوخ، تعاليا معي. هناك سلافة وبشرى. لقد حلقت لتلك القحبة القذرة رأسها وحاجبيها.

حملنا، الكبداني وأنا، القفة بيننا وسرنا نحو طريق أمراح. سأله الكبداني:

ـ ألا تعرف ما يحدث في المدينة؟

ـ لا أعرف بالضبط. ماذا يحدث؟ عندما خرجت من مخزن الخمور الإسباني رأيت الناس يجرون قدامي. هذا كل ما رأيته.

ـ ألم تسمع طلقات النار؟

ـ سمعت بعضها عن بعد، لكني لم أعرف ما كان يحدث. ماذا وقع؟

ـ رجال الأمن يطلقون النار على المغاربة.

ـ لماذا؟

ـ بسبب ذكرى ٣٠ مارس.

ـ والمغاربة بماذا يضربون؟

ـ بالأحجار، بماذا سيضربون؟

ـ هل مات كثير من الناس؟

ـ يطلقون على كل من يمر أمامهم من المغاربة.

سمع وراءنا صوت يصرخ.

ـ ابتعدوا عن الطريق! ابتعدوا!

رجل يحمل على ظهره رجلاً جريحاً ورجل آخر يمشي خلفه. سأل قابيل الكبداني عني:

ـ والأخ الذي معك ماذا يعمل؟

ـ كان بائعاً متجولاً «للحريرة» والسمك المقلي. ترك عمله لأن

صاحب المطعم لم يكن يعطيه أكثر من خمس بسيطات في اليوم. لقد كان يشتغل عنده من الفجر حتّى منتصف الليل.

الكوخ يشرف على منحدر شاطىء سيدي بوقنادل. له باب يؤدي إلى ساحة أمراح وباب يؤدي إلى الشاطىء. فكرت: أنه حقاً كوخ مهرب.

وجدنا سلافة تغني أغنية لفريد الأطرش بصوت يشبه الأنين: «اللي ينساك إنساه ولا يهمك جفاه». رأسها وحاجباها حليقان بالموسَى، وجهها يشبه وجه غلام أمرد، لابسة زكدونا رقيقاً مخططاً بالأسود والأبيض واللون الذهبي. بشرى مستلقية على «المطربة» في يدها «سبسي» لابسة قفطاناً أحمر مزوقاً بأسلاك ذهبية، فوقه «دفين شفاف». ذكرني منظرهما بالأيام الثلاثة التي قضيتها في منزل السيدة عزيزة في تطوان. فكرت: في تلك الأيام كان عندي ألف بسيطة. اليوم جيوبي مثقوبة وبلا عمل قار.

كان طاجين السمك بالبطاطا والطماطم (تاجرا) تفوح منه رائحة الصعتر جاهزاً فوق «الطيفور». جاءتنا سلافة بالطشت والإبريق والصابونة لنغسل أيدينا. تحاول أن تتماسك صابة الماء على يدي الكبداني. عند نوبتي نظرت إليّ باسمة، ثم أطلقت ضحكة خفيفة. تتوقف عن صب الماء على يدي ثم تبتسم وتستأنف الصب والإبريق يتمايل في يدها. أنها ثملة. عند نوبة قابيل أخذت تضحك وهو عبوس. غضب. خطف الابريق من يدها صارخاً:

ـ أطلقيه من يدك يا هذي القحبة القذرة. هل تلعبين معنا؟

ـ القذرة هي أمك. هل تعرف؟

هددها بصفعة. تدخل الكبداني. أمسك الكبداني الإبريق وأخذ يصب على يدي قابيل. قال لها:

ـ في المرة المقبلة لن أحلق لك فقط شعرك وحاجبيك إنما سأكورك من على المنحدر.

ـ جرب إذا ولدتك أمك رجلاً. جرب وسترى من سيكور الآخر أهي أنا أم أنت!

قالت بشرى:

ـ ألن تكفا عن هذا الصداع؟ سأغادر إذا لم تكفا.

الطاجين لذيذ، مليء بالتوابل الحارة. حينما انتهينا من الأكل ظللنا نتحدث عن الحادث المشؤوم، نشرب النبيذ، ندخن الكيف ونستمع إلى أسطوانات أم كلثوم القديمة حتّى الخامسة مساء. كنت قد غفوت فوق المطربة عندما قال لي الكبداني:

ـ محمد، أننا سنخرج. ابق أنت هنا معهما حتّى نعود. عد إلى النوم إذا شئت.

ـ نعم، سأنام قليلاً.

سمعت الباب يغلق بالمفتاح. كنت قد حلمت بصف طويل من الرجال العراة، في ساحة كبيرة، يمرون واحداً فواحداً أمام ثلاثة أو أربعة أشخاص عراة مثلهم واقفين وقدامهم طاولة وأدوات طبية يجزون لهم أعضاءهم التناسلية ويرمونها في برميل. وعلى مدار الساحة المسيجة بمتاريس تقف حشود من النساء العاريات يبكين هؤلاء الرجال.

سلافة وبشرى نائمتان: بشرى نائمة على جنبها الأيمن، مديرة

وجهها إلى الحائط وسلافة تنام على بطنها، مديرة هي أيضاً وجهها نحو الحائط. بدا لي شكلها المتراخي كأنها أنقذت من الغرق. هيجتني مؤخرتها البارزة التكوير. قبل أن أعود إلى النعاس سمعتها تتحرك وتقول:

ـ ذهب ذلك القواد الكلب.

فتحت عيني ببطء. قامت وأشعلت الضوء. كانت مستيقظة إذن. تمططت بشكل أبرز صدرها ومؤخرتها. انتصبت مثلما هو شيئي منتصب ونظرت إليّ بدلال: عيناها ناعستان.

ـ أحقّاً أنت تنام؟

جلست وقلت لها:

ـ أستريح قليلاً.

أخذت زجاجة النبيذ المنصفة وكأسين.

ـ تعال إلى الحجرة الأخرى حتّى لا تفيق بشرى.

أتبعها أم لا؟ أنها هي التي تحكم هنا. ربة كل شيء هنا. عندما وقفت شعرت بدوخة تعبر رأسي واضطراب في القلب. صداع خفيف في جانب رأسي الأيمن. نظرت نحو بشرى. أهي أيضاً مستيقظة؟ صمتها يخيف. النساء يتفاهمن مع بعضهن في مثل هذه الظروف. دخلت الحجرة الأخرى. حجرة النوم مفروشة بأشياء فاخرة. لم أر من قبل حجرة في كوخ مفروشة بهذا الشكل الجميل. في ركن صناديق من الكرتون متراكمة. ربما تحتوي على سلعة. جلست على الفراش. أنا على المطربة.

ـ تعال واجلس إلى جانبي.

ترددت. أضافت:

ـ هل تخاف من قابيل؟

ـ نحن لا نعرف بعضنا من قبل. الكبداني هو الذي عرفني به أثناء هروبنا من الحادث المشؤوم.

ـ أنه غير قادر على فعل أي شيء حتّى وأن وجدك نائماً معي. أنا التي أعرفه. أنه مثل كلب ينبح ولا يعض.

فكرت: هذا ممكن، لكنه سيطردني من هنا وتبقيان أنتما مع بعضكما. لا شك أنه يحبك. رأيت وسمعت ما يثبت لي أنك الحاكمة.

قمت وجلست قربها على الفراش. ملأت الكأسين بنفسها. مدت يدها إلى علبة سجائر التبغ الأشقر فوق طاولة صغيرة قرب السرير. أشعلت واحدة. رموش عينيها سوداء. عيناها كبيرتان مختلجتان بحمرة. وضعتها لي في فمي وأشعلت أخرى لنفسها. تذكرت للاحرودة في تطوان تضع لي سيجارتها في فمي.

ـ وإذا استيقظت بشرى!

ـ إنها أختي.

ـ أختك؟.

ـ مثل أختي.

ـ فهمت.

نظرت إلي باسمة. شفتاها صغيرتان مثل خاتم الأصبع، في لون الفراولة. المرأة ذات الفم الصغير يكون فرجها صغيراً. هكذا سمعت. ابتسمت لها. شربت كأسها. تمددت على ظهرها. تدخن ناظرة إلى السقف. تضغط على يدي ثم تتركها ثم تأخذها وتفلتها. إنها تتسلّى. تتيقظ ثم تشرد، تجلس ثم تستلقي. دافئة يدها، طويلة أناملها التي تغري بقضمها. رغبة دفء اللحم ترعشني. تمددت جنبها. أدخن وأنظر إلى دمية صغيرة معلقة على الجدار. أضغط مثلها على يدها الرخوة، الحارة الآن. تذكرت الشاب الذي لم نتركه يحتمي معنا خلف صندوق الصراف. شعرت بندم. يدق رأسه كما يدق مسماراً. سقط متمرغاً والدماء تسيل منه. صامتان ويداها في يديَّ تتنزهان. هل يتمتع معها قابيل هكذا؟

تحركنا معاً. تباسمنا. تراقصت عيوننا.

ـ انتظر. سأخلع ثوبي.

أطفأت سيجارتها في المنفضة. النشوة تدغدغ رأسي وثوبها ينسلّ من رأسها وذراعيها. سليبها وردي، بلا رافعة صدر. نهداها صغيران مثل ليمونتين. تذكرت مص البرتقال على الشجرة ـ المرأة في وهران. تلك امرأة من خشب. إن الإنسان يعشق اللحم.

ـ اخلع ثيابك.

ـ من الأحسن أن أبقى لابساً. لن يكون لي الوقت كي ألبس إذا جاء قابيل والكبداني.

ـ لن يعودا إلا بعد ثلاث أو أربع ساعات، أنا أعرفهما جيداً.

ـ أين تظنين أنهما موجودان الآن؟

ـ لا أدري. أنه لا يقول لي قط أين يذهب، لكني أعرف أنه يتأخر عندما يخرج مع أحد أصدقائه. أنه يكون أكثر حماقة حينما يكون مرفوقاً. ربما ذهبا معاً إلى البورديل.

ـ لكن الحالة اليوم ليست عادية في المدينة كلها.

ـ هناك بيوت دعارة كثيرة غير البورديل.

وجهها الغلامي الأبيض المورد الخدين له شكل قلب. أغمضت عينيّ وسقط رأسي على صدرها العاري الحار، فكرت: مخدة من لحم تخفق بعنف. هذه الوسادة من اللحم تخفف صداع رأسي. اصابعها تغوص بلطف في شعري الغزير. يدي تمتد في عماء إلى رأسها. نسيت أن رأسها حليقة. دغدغت شعيراتها المنتصبة كفي. حين ألاطف رأسها من جبهتها حتّى قفاها يقف شعرها. لا بد أنه يغار عليها حتّى يحلق رأسها وحاجبيها. داعبت تصلّب نهدها الداخلي الكروي. تتدغدغ أكثر حين أمص نهدها الأيسر. تغطيه بيدها ضاحكة. هي تريد الأيمن وأنا أريد الأيسر. وبين لعبة الأيسر والأيمن صارت تتدغدغ في كليهما. لعبنا قليلاً ضاحكين. بين هذا وذاك صرنا طفلين.

شغلت يدها في أزرار فتحة بنطالي. أطل قائماً في يدها. نزهت يدها عليه من حشفته إلى منبته. تحك به شفري فرجها. عانتها سوداء وقاس زغبها. خشنة عانتها مثل رأسها. أنا ألح على الولوج وهي تلح على الحك. تضغطه. تخنقه، تقيس حجمه هبوطاً وصعوداً في يدها المكورة. أنا أعد فقرات عمودها الفقري. انتشلته من يدها. نتداخل. نتخارج. تضمني إليها بساقيها وذراعيها. قلت له: اجعل نفسك قوياً معها. كن صديقاً لشيئها أيها الأعور.

أفقت على صوت بشرى:

ـ سلافة، قومي. هل أنت نائمة؟

جلست بسرعة على حافة السرير وسألت بشرى:

ـ ألم يعد الكبداني؟

أجابتني بعد هنيهة:

ـ ليس بعد.

ذهبت إلى حجرة الجلوس. سمعت سلافة تقول لبشرى:

ـ لم يعد بعد ذلك القواد.

وجدتها جالسة تدخن سيجارة. قالت لسلافة:

ـ أخاف أن يكونوا قد قبضوهما بسبب ما وقع في المدينة.

ـ لتحرقه النار.

دخلت المرحاض واغتسلت: حينما خرجت وجدت سلافة خفيفة، مرحة. حدقت فيّ باسمة. نشوة الانتصار بادية على وجهها. جلست على المطربة. انحنت عليّ وأمسكت وجهي بيني يديها ملاطفة إياه وقلبي يخفق بعنف. باستني في فمي كما لو أنها تقبل طفلاً. ابتسمت لها ورأيتها تدخل المرحاض. ذكرتني بفتاة عين قطيوط. أين هي الآن؟ وضعي الآن يختلف. بشرى جالسة مهمومة واضعة مرفقيها على ركبتيها ووجهها بين كفيها. بعد لحظة قامت ووضعت في الحاكي اسطوانة «أكذب نفسي» لأم كلثوم. تذكرت تطوان وحيّ عين خباز والحشاشين والسكارى في القهوة التي عملت فيها. كدت أنتحب. بدت لي جميلة طفولتي في ذلك الحيّ.

المفتاح يدار في القفل. دخل الكبداني ثم قابيل. يبدوان متعبين وحزينين. سألت الكبداني:

ـ ماذا هناك من جديد؟

خفض صوت الحاكي وأم كلثوم تغني: «أكذب نفسي عنك في كل ما أرى».

ـ كل شيء انتهَى الآن. خرجوا وقتلوا كثيراً من المغاربة.

دخل قابيل حجرة النوم وجلس الكبداني قبالتي. خرجت سلافة من المرحاض وسألت الكبداني:

ـ أين كنتما؟

ـ كنا في مهمة.

قالت ساخرة:

ـ قل لي بصراحة بأنكما ذهبتما إلى البورديل وكنتما في دار السعدية الكحلا أو في دار الزهرة الحمقا أو عند برغوثة.

قبل أن يجيبها الكبداني قال لها قابيل:

ـ ألن تغلقي فمك القذر؟

صرخت:

ـ الفم القذر هو فمك.

ثم دخلت حجرة النوم. وقف الكبداني وقال لي:

ـ لنخرج للحظة ثم نعود.

خرجنا من الباب المؤدي إلى منحدر سيدي بوقنادل. صفعني هواء

بارد. أشعلنا سيجارتين. أضواء البواخر الراسية في الميناء رائعة. قال:

ـ سأخبرك بشيء جديد يهمك أن تعرفه.

ـ ما هو؟

ـ لقد وافق قابيل على أن تعمل معنا غداً.

ـ هذا مهم جداً.

ـ لكن بشرط.

ـ ما هو ؟

ـ أن تبقَى هنا في الكوخ هذه الليلة ونهار الغد كله حتَّى يحين موعد العمل في المساء.

قلت لنفسي: هذا ما أريده.

ـ ولماذا هذا الشرط؟

ـ سأشرح لك: قابيل لا يعرفك جيداً بعد، وهو يخشَى أن تبوح بسر العملية لأحد.

ـ إنني فهمت.

ـ أنا أعرفك، لقد تحدثت إليه عنك وأقنعته بأنك جاد ومخلص وشجاع.

ـ شكراً.

ـ لقد سبق له أن وشى به بعض الحمالين مرات كثيرة. هو مقتنع اليوم أن وقوعه في فخ رجال الجمارك أو رجال الشرطة السرية سببه وشاية الحمالين الجدد. يحدث أحياناً أن يكون الجمركيون أو الشرطة

هم الذين يرسلون هؤلاء الحمالين الوشاة ليعملوا مع المهربين. بسهولة يعرف مكان العمل، الساعة، وأحياناً يعرف حتَّى نوع السلعة المهربة. إن الحمالين يأخذون مبلغاً مضاعفاً ثلاث أو أربع مرات من البوليس السري أو من رجال الجمارك أكثر من المبلغ الذي يتقاضونه من المهربين.

ـ غريب.

ـ وأيضاً يشعرون أنهم محميون.

بعد صمت أضاف:

ـ قابيل شخص طيب، عيبه هو أنه بخيل. في غالب الأحيان يدفع من يعمل معه إلى أن يسرقه لكي يأخذ أجرته التي يستحقها. (أضاف): ليس سخياً إلا مع النساء. مع نساء من نوع سلافة.

سألته:

ـ أهو يغار على سلافة؟

ـ أنه يعرف أنها تستطيع أن تفتح فخذيها حتَّى لقرد.

ـ وإذن.

ـ مع ذلك يحبها.

ـ لكن لماذا حلق لها شعر رأسها وحاجبيها؟

ـ حلق لها رأسها وحاجبيها حتَّى لا تغيب طويلاً. أحياناً تغيب عنه اسبوعاً أو أكثر.

ـ هكذا يحبها إذن.

ـ بجنون.

ـ وأين تكون عندما تهرب منه؟

ـ تسكر وتقحب في سهرات منازل الأصدقاء والناس.

ـ وهي، أتحبه؟

ـ وهل مثلها تحب؟ تحب ماله. إنها تصارحه بذلك. سمعتها يوماً تقول له: «أيامك خسارة معي. فتش عن غيري تحبها. ينبغي لك أن تفهم أني لا أحبك».

ـ وبماذا يجيبها هو؟

ـ إنه لا يصدقها. يعتقد أنها تحبه أيضاً على طريقتها. لم أره قط يضربها.

ـ إنه شخص غريب.

ـ هو يعتقد أنها قد سحرت له.

ـ وهل تعتقد أن هذا صحيح؟

ـ كلا، إنها خرافة. إنه يحبها وكفَى.

ـ ولكن كيف استطاع أن يحلق لها؟

ـ أسكرها ووضع لها الحشيش في الشاي. عندما نامت حلق لها بالموسَى.

ـ وماذا فعلت معه عندما أفاقت؟

ـ كسرت بعض أدوات المنزل وسبته وأقسمت أنها ستنتقم منه ذات يوم.

ـ وبشرى؟

ـ أنها صديقتها. سلافة أيضاً تكون مجنونة حين تهجرها بشرى.

ـ أليس لبشرى عشيق؟

ـ لا أدري. أعتقد أنها لا تحب إلّا نفسها. مزاجها صعب، لكنها طيبة، لا تحقد على أحد. لا تتكلم إلّا عند الضرورة. الحق يكون معها دائماً إذا هي تكلمت.

ـ لاحظت ذلك.

أشعلنا سيجارتين أخريين. فكرت في أن أطلع الكبداني على ما فعلته مع سلافة، لكني خفت أن يغار أو يحسدني. ربما يخبر قابيل ليبرهن له على اخلاصه الحميم.

حينما عدنا إلى الكوخ كانت أم كلثوم أيضاً تغني بصوتها القوي:

إني أغار من الكؤوس فجنبي   كأس المدامة أن تقبل فاك

١٠

في الصباح بقينا، سلافة وأنا، في الكوخ. قابيل والكبداني خرجا دون أن يخبراني عما سيفعلانه في الخارج. بشرى ذهبت لتزور أمها. لم ترها منذ بضعة أيام. خمنت أن يكون قابيل والكبداني قد ذهبا ليهيئا الوسائل التي سنعمل بها في عملية التهريب. سلافة تنظف حجرة النوم وأنا مستلق أدخن سجائر شقراء وأفكر في وضعي الجديد بقلق.

ـ سلافة، هل هناك كأس خمر؟

أطلت عليّ باسمة:

ـ أنتظر قليلاً. سنفتح زجاجة نبيذ ونشربها معاً.

ابتسمت مرة أخرى واختفت. فكرت: لقد دخلنا في لعبة العشق. القلق يتصاعد في نفسي. أن اغراءها بدأ يشقيني. ذكرني وضعي في الكوخ بذلك الصباح الذي حبسني فيه صاحب الغرسة الذي كنت آكل له اجاصة في حيّ عين قطيوط، لكن الوضع يختلف. أستطيع أن أبقَى هنا أو لا أبقى. نهضت. وقفت على المطربة وأطللت من الكوة المفتوحة على البحر. السماء غائمة. البحر هائج. بعض البواخر الكبيرة والصغيرة تعبر البحر. وقفت ورائي. وضعت يديها على كتفي. أنفاسها حارة في أذني اليمنَى. تدغدغ جسمي كله.

همست:

ـ ماذا تنظر؟

أنفاسها ودفؤها جعلاني أنتصب. هل صرت عشيقها؟ البؤس والحب. أليس هذا رائعاً؟

ـ أنظر إلى البحر. لم أسافر قط في البحر. أنه يغريني بالسفر فيه ألى أبعد مكان في العالم. هل سافرت أنت في البحر؟

ـ أنا؟ (ضحكت). اسألني فقط أن كنت قد خرجت من طنجة. لم أسافر في البحر ولا في البر.

تخيلت أني أراها قادمة إليّ ماشية في الفراغ ثم سابحة ثم طائرة في ثوب أبيض.

ـ ألم تخرجي قط من طنجة؟

ـ أبداً. أين تريد لي أن أذهب؟ مع من؟ (أضافت): عندي احساس إني إذا غادرت هذه المدينة فلن أعود إليها أبداً. أبداً لن أعود.

ـ عندي نفس الأحساس.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

التفت إليها. فتحت عينيها بقوة في عيني كما لو أنها تقول لي: «ألا يعجبك ردي على سؤالك؟» لم أستطع أن أقاوم نظراتها. خفضت نظراتي. أنها بدأت تقلقني. حولت نظراتي نحو الباب.

ـ نحو ماذا تنظر؟

ـ نحو الباب.

ـ ماله؟

ـ لا شيء.

ـ فيم تفكر؟ أنك تفكر في شيء.

ـ أفكر في الباب.

ـ لماذا؟

ـ أكره أن يقفل عليّ أحد الباب.

جلسنا. فكرت في الموت. الحب دائماً يجعلني أفكر في الموت. أحس نفسي سارقاً ومسروقاً. زجاجة نبيذ وقدحان فوق الطيفور.

ـ أنا أيضاً كان يضايقني أن يقفل عليّ أحد الباب، لكني تعودت.

ـ أنا لم أستطع أن أتعود، ولا أريد أن أتعود.. أنني أشعر كأنني في سجن.

ـ عندك الحق.

أننا الآن سيان، أنا وهي، أمام هذا الباب المقفل: هي عشيقة قابيل وأنا حماله الذي لا يثق فيه بعد. فكرت أن أقوم وأكسره، لكني سأفسد كل شيء: صداقتي مع الكبداني، علاقتي بسلافة وأمكان أن أصير حمال قابيل مثل الكبداني الذي يثق فيه.

ـ في أي شيء تفكر؟ كفاك من التفكير. أفتح الزجاجة.

أخذت المبزل من فوق الطيفور. قالت بعد لحظة:

ـ عندي شيء أقول له لك.

نظرت إليها:

ـ ما هو؟

ـ أن نغادر طنجة إذا شئت.

نظرت إليها بامعان.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان. إلى الدار البيضاء، مثلاً.

فكرت أن أقول لها: ورأسك وحاجباك الحليقان؟ لم أرد أن أحزنها. ربما هي ناسية.

ـ وماذا سنفعل هناك؟

ـ أي شيء.

فتحت الزجاجة وملأت القدحين.

ـ لكني لا أتقن أي عمل. وأنت ماذا ستفعلين؟

ـ أستطيع أن أقوم بأي عمل. أن أعمل، مثلاً، خادمة عند إحدى الأسر الفرنسية. أن صديقتي فضيلة هناك وجدت عملاً بمجرد أن وصلت وأتصلت بأسرة فرنسية.

فكرت في الكبداني الذي قال لي بأن سلافة تكون مجنونة عندما تهجرها بشرى.

ـ وبشرى؟

ـ ستذهب أيضاً معنا.

فكرت: أليست حمقاء هذه المرأة؟ قلت لها بخبث:

ـ فهمت جيداً ما تقولين.

ـ أنها طيبة. مالها ؟ ألا تراها طيبة؟

ـ لم أقل عيباً فيها. أنني سألتك فقط.

قالت بتوتر:

ـ أنها أخت. أنك لا تعرفها بعد. حين تعرفها ستعتبرها كأختك.

فكرت: أنني أفهمك الآن جيداً يا سلافة. سنصير أخويها وتصير أختنا التي تصالحنا عندما نتخاصم. هي الرزينة ونحن الطائشان. مددت لها كأسها. مدت لي كأسها لأشربه من يدها وجعلتني أمد لها كأسي لتشربه من يدي. ذراعانا متقاطعان شاربين ببطء. ابتسمنا كطفلين. حركة رائعة لم أتمتع بها من قبل. نظرت نحو الباب. نظرت هي أيضاً. طلبت فمي بعينيها الناعستين. مالت عليّ. تسكب فيه شيئاً فشيئاً ما تبقَى من النبيذ في فمها. أمتلىء بلذائذ كثيرة من خلال هذه المرأة. انسحبنا إلى حجرة النوم.

قبل المضاجعة وبعدها يكاد يغلبني البكاء. لا أعرف لماذا!

كنا في قاعة الجلوس عندما دار المفتاح في قفل الباب. فريد الأطرش يغني: «امتَى تعود يا حبيب الروح؟» وسلافة تفكر. لا هي حزينة ولا هي فرحة. لا أعرفها إلاّ عندما تبتسم أو تصرخ. من يدري ما تفكر فيه الآن؟ ربما هي قلقة لأني لا اجيبها بصراحة عن

مشروع مغـادرتنا طنجـة إلى الدار البيضـاء. تـركتهـا لنفسهـا. دخـل الكبداني حاملاً قفة مـلأى بالتسـويقة، متعباً. قلت له:

ـ آ. قابيل، جئت!

نظر إليّ باستغراب، اعتذرت له باضطراب:

ـ عفواً كنت أفكر في شيء. ما هي الأخبار؟

ـ أف، مصيبة.

وضع القفة قدام سلافة وقال لها:

ـ هاك، اقلي السمك كله، هذا ما قاله قابيل.

قالت بحدة:

ـ أفي هذه الساعة تأتيني بالسخرة؟

ـ كنا مشغولين في مهمة.

ـ ماذا يهمني أنا؟ كان ينبغي أن تأتيني بالسخرة قبل الآن.

فكرت: أنها تكذب. سألته:

ـ هل حدث شيء جديد؟

ـ لقـد اتضـح الآن كـل شيء. الاسبـانيــون هم الـذين خـططوا للحادث المشؤوم.

ـ اذن ما كانوا يقولونه عن المرواني في مقهى التشاطو صحيح؟

ـ ربمـا. من يعـرف! مـا يعـرفـه معـظم النــاس حتىً الآن هـو أن الاسبانيين هم سبب المأساة المشؤومة.

ـ استغلوا اذن ذكرى ٣٠ مارس واستعملوا المغاربة في هـذه القضية كبيادق.

ـ هذا ما يبدو.

ـ هذه مصيبة.

ـ لقـد مات عشرات المغـاربة ولم تمـر إلاّ ستُ أو سبـع جنـائـز من السوق الداخلي بعد أن صلوا على الضحايا في الجامع الكبير.

ـ والأموات الآخرون؟

ـ لا بد أن أنهم أخفوهم حتىً لا يثـيروا غضب المواطنـين المغاربـة. أن معظم الذين ماتوا ليسوا من طنجة. أنه سهل دفنهم سرّاً.

بعد لحظة سألته:

ـ هل يسمحون للناس أن يتجولوا في الشوارع؟

ـ نعم، لكن الحـراسة مـا زالت شديـدة في جميـع الـطرق. يلقـون القبض على المشبوهين. أن العسكريـين يتعاونـون مع رجـال الأمن في الحراسة.

ـ وقابيل؟

ـ ذهب إلى منزل أبويـه. (أضاف): وبشرى، ألم تعـد بعد؟ قـالت سلافة:

ـ ليس بعـد. لماذا لا تـذهـب وتصحبها معـك إلى هنا؟ قـد تكـون خائفة من العودة بسبب الحراسة. (أضافت بصـوت رقيق فيه رجـاء): اذهب واتٍ بها.

مشروع مغادرتنا طنجة إلى الدار البيضاء. تركتها لنفسها. دخل الكبداني حاملاً قفة ملأى بالتسويقة، متعباً. قلت له:

ـ آ. قابيل، جئت!

نظر إليّ باستغراب، اعتذرت له باضطراب:

ـ عفواً كنت أفكر في شيء. ما هي الأخبار؟

ـ أف، مصيبة.

وضع القفة قدام سلافة وقال لها:

ـ هاك، اقلي السمك كله، هذا ما قاله قابيل.

قالت بحدة:

ـ أفي هذه الساعة تأتيني بالسخرة؟

ـ كنا مشغولين في مهمة.

ـ ماذا يهمني أنا؟ كان ينبغي أن تأتيني بالسخرة قبل الآن.

فكرت: أنها تكذب. سألته:

ـ هل حدث شيء جديد؟

ـ لقد اتضح الآن كل شيء. الاسبانيون هم الذين خططوا للحادث المشؤوم.

ـ اذن ما كانوا يقولونه عن المرواني في مقهَى التشاطو صحيح؟

ـ ربما. من يعرف! ما يعرفه معظم الناس حتَّى الآن هو أن الاسبانيين هم سبب المأساة المشؤومة.

ـ استغلوا اذن ذكرى ٣٠ مارس واستعملوا المغاربة في هذه القضية كبيادق.

ـ هذا ما يبدو.

ـ هذه مصيبة.

ـ لقد مات عشرات المغاربة ولم تمر إلاّ ستُ أو سبع جنائز من السوق الداخلي بعد أن صلوا على الضحايا في الجامع الكبير.

ـ والأموات الآخرون؟

ـ لا بد أن أنهم أخفوهم حتَّى لا يثيروا غضب المواطنين المغاربة. أن معظم الذين ماتوا ليسوا من طنجة. أنه سهل دفنهم سرّاً.

بعد لحظة سألته:

ـ هل يسمحون للناس أن يتجولوا في الشوارع؟

ـ نعم، لكن الحراسة ما زالت شديدة في جميع الطرق. يلقون القبض على المشبوهين. أن العسكريين يتعاونون مع رجال الأمن في الحراسة.

ـ وقابيل؟

ـ ذهب إلى منزل أبويه. (أضاف): وبشرى، ألم تعد بعد؟ قالت سلافة:

ـ ليس بعد. لماذا لا تذهب وتصحبها معك إلى هنا؟ قد تكون خائفة من العودة بسبب الحراسة. (أضافت بصوت رقيق فيه رجاء): اذهب واتِ بها.

ـ لا أعرف أين تسكن.

ـ تسكن في دار البارود قدام مقهَى الماكينة. اسأل عنها أي واحد تجده هناك يدلك على مسكنها. لا بد أن تجد بعض الأطفال يلعبون في الحيّ. أنها معروفة في حيها.

ـ ستعود وحدها. (أضاف): الناس لا يخرجون إلاّ لما هو ضروري وقريب من منازلهم. أما الأطفال فلم أر ولو واحداً طوال الصباح.

قالت بحدة:

ـ خلاص. الفناء في العالم. أنك لا تريد أن تذهب وكفَى.

ـ ليس هكذا، أنما...

قاطعته غاضبة:

ـ كفَى، أرجوك لا تقل لي شيئاً أكثر.

بعد لحظة قالت كما لو أنها تكلم نفسها:

ـ أنا أعرف ما سأفعل بنفسي: أحلف لكم أنني إذا بقيت هنا معكم فابصقوا وبولوا عليّ.

قال لي:

ـ لقد رتبنا كل شيء. هيئ نفسك للعمل الليلة. سيعمل معنا ثلاثة حمالين آخرين. سنستخدم سيارتين: واحدة لشحن السلعة والأخرى لنقل الحمالين. أنا سأتكلف بنقل السلعة في زورق من المركب إلى الشاطئ. أنت ستكون مع الحمالين الثلاثة الذين سينقلون الصناديق من الشاطئ إلى السيارة. عليك أن تكون شجاعاً، قوياً وسريعاً في

حمل كيسك. قد يحدث أن يفاجئنا رجال الجمارك على الشاطئ أو عند دخولنا المدينة. في هذه الحالة عليك أن تعمل بتعليمات قابيل أو شريكه الذي ستعرفه أثناء العملية. قد يحدث نفس الشيء مع الشرطة السرية أثناء إنزال السلعة في المدينة. لا أكتمك أن العملية لا تخلو من الخطر والمغامرة. ربما يطلقون علينا النار في حالة الفرار. هل فهمت؟

ـ نعم.

ـ أحياناً يحدث أن يرشي صاحب السلعة رجال الجمارك أو الشرطة السرية. غالباً لا يتفقون على مبلغ الرشوة. هنا يحدث الفرار والعنف.

ـ ماذا تقصد بالعنف؟

ـ أحياناً تدور المعركة بالسلاح.

فكرت: قابيل يملك إذن سلاحاً. ينبغي لي إذن أن أحذر من علاقتي مع سلافة. ماذا يمنعه من أن لا يطلق علينا النار، إذا وجدنا في الفراش؟

ـ وهل قابيل مسلح؟

ـ أوه، ها أنت تتدخل فيما لا يعنيك. إنني أقول لك فقط ما يمكن أن يحدث. لا يهمك أو يهمني إذا كان قابيل وشريكه يملكان سلاحاً أو لا. أتفهم؟

ـ نعم، لكنني أسألك فقط.

فكرت: لقد انزلقت على قشرة موز. ربما يعرف الآن أن لي علاقة مع سلافة.

ـ إنني أقول لك أشياء لا يمكن لي أن أقولها لأي حمال آخر.

ـ أنا أعرف.

سألها:

ـ سلافة، أين السبسي؟

قالت من المطبخ:

ـ لا أدري. فتش عنه.

فكرت: لقد بدأت تنتقم منه. تذكرت أننا دخنا، هي وأنا، قليلاً من الكيف في حجرة النوم. تظاهرت أنني أفتش معه عن السبسي في حجرة الجلوس. ذهب إلى حجرة النوم. قال:

ـ لقد وجدته.

قمت ووضعت في الحاكي أسطوانة «عندما يأتي المساء» لعبد الوهاب.

ركبت مع ثلاثة حمالين شبان وشيخ يقود السيارة. كنت أصغرهم. رائحة خمر تفوح من السائق. يسوق جيداً. لا يتعدى مؤشر السرعة ٧٠ كلم. في المنحدرات والمنعطفات ينخفض المؤشر إلى ٤٠ أو ٣٠.

وصلنا إلى رأس سبارطيل حوالي الثانية صباحاً. توقفت سيارتنا وراء سيارة كبيرة سوداء. نزلنا. فتح باب السيارة الأخرى. خرج رجل طويل القامة، قوي. قدرت أنه في حوالي الخامسة والأربعين. إقترب منا بهدوء وسأل السائق:

ـ كيف هي الحالة في الطريق؟

ـ حسنة. لم نشك في شيء.

نزلنا ثلاثتنا ما عدا السائق. فهمت مما قاله السائق الشيخ أننا لم نلتق بأية دورية للحراسة. أدركت أن هذا الرجل القوي هو شريك قابيل. قال لنا:

ـ كونوا رجالاً.

ثم وضع يده على كتفي مركزاً نظراته عليّ:

ـ من أية ناحية من الريف أنت؟

ـ من بني شيكر.

ـ أعرف الشكريين. الريفيون شجعان.

سحب يده وأضاف:

ـ أنا أعرف الريفيين جيداً. كانوا معي في الحرب الإسبانية الأهلية. كن رجلاً مثل رجال بلادك.

إنشرحت ملامحي. أخرج علبة سجائر ومدها إلى كل واحد منا. فكرت: إنها بادرة حسنة منه. قذر من يخون هذا الرجل. إن له شخصية طيبة وجذابة. قابيل يبدو طفلاً أمام هذا الرجل. قد يكون قابيل أيضاً طيباً، لكن شخصيته ضعيفة. يلزمني أن أكون مخلصاً. قال لنا:

ـ هل أنتم مستعدون؟

قلنا له واحداً بعد آخر:

ـ نعم.

هبطنا منحدراً صعباً. نسير بين الأشجار والحشائش والصخور.

فكرت: هل من هنا سنعود صاعدين مثقلين بالبضائع؟ قال لي شريك قابيل:

ـ ناديني القندوسي إذا أردت أن تناديني.

أدركت أن هذا اللقب هو لقب المهنة السري. الطريق التي كنا نسلكها كانت وعرة. تعثرت مرات في الحفر والحجارة الناتئة. قال لي:

ـ ينبغي لك أن تحذر جيداً من السقوط عندما تعود حاملاً ثقلك. إن ما في داخل الصناديق يتكسر.

فكرت: ماذا سيكون داخل الصناديق؟ شيء يتكسر. تراه ماذا؟

حينما بلغنا الشاطئ أخرج مصباحاً بطاريا وأخذ يرسل علامات نحو البحر. تلقى جواباً بنفس العلامات الضوئية.

وجدنا هناك قابيل جالساً وحده. إلى جانبه حزمة أكياس وحزمة حبال.

ـ آ، وصلتم. هل كل شيء جاهز؟

ـ كل شيء حسن حتّى الآن.

بدأ يسمع هدير محرك وإشارات ضوئية ترسل نحو الشاطئ. أجاب القندوسي بنفس العلامات. البحر هائج قليلاً. الهدير يقترب. قال لنا القندوسي:

ـ كونوا على استعداد.

توقف الهدير. بعد حوالي ربع ساعة من الصمت أرسلت من المركب علامات أخرى. أجاب عليها القندوسي بنفس العلامات. قال لنا:

ـ الزورق آت إلينا. لنقترب.

عندما اقتربنا من حافة الشاطئ خلع حمالان نعليهما المطاطين وبنطاليهما. تراءى لنا الزورق ينخفض ويعلو مع الأمواج العالية. دخل الحمالان في الماء. أحاطا الزورق من الجانبين. نزل الكبداني إلى الماء وأخذوا يدفعون الزورق إلى حافة الشاطئ. شرعنا جميعاً ننقل الصناديق إلى الرمل غير بعيد عن حافة الشاطئ. الصناديق لم تكن كبيرة ولا ثقيلة كما كنت أتصور. فكرت بأن ما بداخلها لا بد أن يكون ثميناً: ربما تحتوي على ساعات.

أنزلنا بسرعة تسعة صناديق. سأل القندوسي الكبداني:

ـ هل هناك خطر في عودتك إلى المركب؟

ـ ما أظن.

ـ إذا كنت تعتقد أن هناك خطراً في عودتك إلى المركب فيمكننا أن نسحب الزورق إلى الشاطئ وفي الصباح ندبر شأننا معه.

ـ ما أظن أن هناك خطورة.

ـ إحذر جيداً من الصخور.

ـ إنني أعرف هذه المنطقة جيداً.

قلت للكبداني:

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء. (أضاف): بعد حوالي ساعة سأجدك في الكوخ.

كان زورقه سيجره المركب حتّى ميناء طنجة.

شرع الحمالان العاريان حتّى النطاق يدفعان الزورق إلى البحر والكبداني رافع المجذافين عن الماء. رأيت الكبداني يختفي في ضباب الليل وهدير الأمواج.

وضعنا بسرعة صندوقين في كل كيس. قال لي القندوسي، بعدما انتهينا من ربط فوهات الأكياس:

- إذا لم تكن قادراً على حمل صندوقين فاحمل واحداً.

قلت له واثقاً من نفسي:

- إنني أقدر أن أحمل ثلاثة صناديق إذا شئت.

أردت أن أتحدى قوتي وسني. ربما ما يدفعه إلى الشك في قوتي هو نحول جسمي. فكرت: إن مثل هذا العمل أفضل لي من التسول والسرقة، أفضل من ترك عضوي يمصه عجوز وبيع «الحريرة» والسمك المقلي للبدويين والعمال في السوق البراني و«فندق الشجرة». أفضل من أي عمل آخر كنت أقوم به من قبل. إنها مغامرة تجعلني أشعر برجولتي وأنا في السابعة عشرة من عمري. إن مرحلة جديدة من حياتي تبدأ في هذا الصباح الباكر.

حملنا الأكياس ومشينا في نفس الطريق التي هبطنا منها. القندوسي يتقدمنا وقابيل خلفنا لا يحمل شيئاً. يبدو أنه ثمل. أعتقد أنه لا يستطيع أن يواجه مغامرة إلّا وهو ثمل. كل واحد منا، نحن الحمالين، يحمل كيساً يحتوي على صندوقين. الصندوق التاسع حمله القندوسي في كيس. بعد دقائق بدأ حملي يثقل عليّ شيئاً فشيئاً. ألم في عظام كتفي وفي رقبتي. ألأنني لم أضع الكيس في وضع حسن؟ لم أجرؤ أن أغيّر من وضع الكيس على كتفي حتّى لا أجعل القندوسي يظن أني تعبت ونحن

ما زلنا في وسط الطريق. قد لا يستخدمني في عملية أخرى إذا بدوت في هذه العملية الأولى رخواً. قابيل بدا لي أخيراً مجرد شخص فائض. أينبغي لي أن أطيع أوامره أم لا؟ لكن لماذا هذه المشاعر العدوانية نحوه؟ إنه حتّى الآن طيب معي. علي أن أتخلص من هذه المشاعر الشريرة رغم أنها تخفف عني ألمي. سأصمد. هذا أفضل. سأصمد رغم أني أحس بكتفي تتنملان وعظام رقبتي تطقطق. ألهث قليلاً وحلقي ينشف. عياء تنفسي ربما هو نتاج عن كثرة تدخيني السجائر الشقراء والكيف. سلافة سبب في هذا العياء. لقد ضاجعتها أربع مرات البارحة. ها أنا الآن أشتاق إلى مواقعتها. سأجامعها إذا نجحت هذه المغامرة وسبقت قابيل والكبداني إلى الكوخ. لكن والمفتاح؟ الأجر الذي سأقبضه عن عملي هذا يبدو لي مقدماً تافهاً ما دمت أجد كل شيء في الكوخ. قيمة المال نافعة لي فقط خارج الكوخ. أتمنى الآن لو كانت معنا سلافة. أن تمشي أمامنا دون أن تحمل شيئاً. هل بدأت أحبها؟ مشاعر عدوانية تتملكني فجأة نحوها. أتخيلني أسبها وأصفعها كي أثير غضبها. أحبها غاضبة أكثر مما أحبها هادئة. أحبها حزينة أكثر مما أحبها فرحة. أحبها حمقاء. أحبها كما تكون مع قابيل، مثلما أراهما يتشاكسان.

عندما بلغنا إلى الطريق وجدنا السائقين خارج السيارتين ينتظراننا. تعاونا معنا بسرعة على شحن السلعة في السيارة الأولى. ركب القندوسي وحده في سيارة السلعة وركب معنا قابيل في سيارة الحمالين. كانت سيارتنا تسبق الأخرى. مسافة حوالي مائة متر تفصل بين السيارتين. السرعة متوسطة. فكرت: لا بد أن يكون لهذا السبق ولهذه المسافة الفاصلة سر. خلال الطريق لم نتبادل أية كلمة بيننا. بين حين وآخر يسعل الحمّال الجالس عن يميني ويسحب نفساً عميقاً من أنفه

بحركة عصبية. مررنا بطريق مقبرة الكلاب. عند مفترق طرق بوبانة توقفت السيارتان. نزل قابيل ثم رأيت سائق السلعة ينزل ويتجه نحونا. قال قابيل لسائق سيارتنا:

ـ أوصلهم إلى حيثما يريدون.

مد لي المفتاح قائلاً:

ـ إذهب إلى الكوخ. لا تفتح إلاّ للكبداني إذا جاء.

إحتل سائق سيارة السلعة مكان قابيل واتجهنا في طريق الدرادب. تركنا سيارة السلعة واقفة في مكانها. تأكدت الآن أن القندوسي وقابيل لا يثقان في أحد. بعد أن تختفي سيارتنا سيقصدان مكاناً مجهولاً ويفرغان سلعتهما. لم يطلب مني أن أفتح له إذا جاء. لا بدّ أنه يملك مفتاحاً آخر. أتمنّى أن يبقى منشغلاً في عمله حتّى الغد.

عندما بلغنا عقبة الدرادب قال لنا السائق الذي تفوح منه الآن رائحة الخمر أكثر من ذي قبل:

ـ إلى أين تريدون أن أوصلكم أيها الإخوان؟

قال اثنان:

ـ أتركنا في السوق الكبير.

قلت له:

ـ أنا أتركني في القصبة.

ـ أنا أعرف.

قال الحمال الذي يسعل:

ـ أنا أيضاً أتركني في القصبة.

نظرت إليه. نظر إليّ هو أيضاً دون أن نتكلم.

في السوق الكبير نزل الحمالان. رأينا شرطيين يتجولان. دخلت السيارة من باب الفحص. الشوارع خالية. شرطيان آخران يقفان تحت شرفة إحدى العمارات. خشيت أن يوقفا سيارتنا ويطلبا منا أوراق التعريف الشخصية.

في ساحة القصبة نزلنا أنا والحمال وبقي السائقان مع بعضهما. قلت لرفيقي:

ـ أنا سأذهب من هنا إلى أمراح.

سعل وقال:

ـ تلك أيضاً طريقي.

لم أجرؤ أن أسأله عن سير العملية التي قمنا بها. بعد لحظة سألني:

ـ أهو الكبداني صديقك؟

ـ نعم.

ـ إنه شاب طيب. (أضاف): أهذه هي المرة الأولى التي تعمل فيها حمالاً في مثل هذا العمل؟

ـ نعم، لأول مرة.
ـ وقابيل صديقك؟

ـ الكبداني هو الذي عرفني به. وأنت تعرف قابيل جيداً؟

ـ كلا. أنا أعرف القندوسي. إنه رجل شجاع. رزين. إذا وعد

بشيء يفي به. كل حمالي التهريب يحبون العمل معه.

ـ أنا سأذهب من هنا.

ـ إنك تسكن مع قابيل إذن.

ـ كلا. إنني مجرد ضيف عنده. ليس لي مكان ثابت أنام فيه.

تودعنا ودخلت في ظلام الدرب. لا أسمع سوى خطواتي. سمعت مواء قطين ثم معركة. مرَّ قدامي أحدهما يطارده الآخر. لا بد أنهما ذكر وأنثى. القطة هي الهاربة كما هي العادة. أتمنى ألا تكون سلافة مثل هذه القطة في هذه الساعة. المضاجعة في نهاية الليل. ستكون أول تجربتي.

وضعت أذني على باب الكوخ. القطان يتهاوءان بعيداً عني. أدخلت المفتاح بمهل وفتحت. حجرة النوم مضاءة. أهي ما زالت يقظى؟ أقفلت الباب تاركاً المفتاح في ثقب القفل. دخلت حجرة النوم. على الطيفور زجاجة نبيذ والسبسي وعلبة الكيف. تنام على جنبها الأيمن منكمشة على نفسها. أشعلت الضوء في حجرة الجلوس. رأيت بطانيتين ووسادتين فوق المطربة. فكرت: بطانية ووسادة لي والأخريان للكبداني. خلعت ثيابي. سمعت حركتها في الفراش. عندما دخلت وجدتها قد غيرت وضعها. تدير وجهها إلى الحائط وما زالت منطوية على نفسها. جلست على حافة السرير واضعاً يدي على كتفها. ترددت في إيقاظها. تمددت بهدوء وراءها. قالت بتذمر:

ـ إن قدميك باردتان كالثلج.

بعد لحظة بدأت يدي اليمنَى تتنزه في بستان جسمها: في صدرها برتقال وتفاح، في مؤخرتها الاجاص والخوخ وبين فخذيها الكاكي

و... نزعت لي يدي بسرعة عندما بلغت شجرة الكاكي. قالت:

ـ لا تلمسني هناك. فيَّ الدم. نَمْ. إذا كنت ستنام.

ـ فيك الدم؟

ـ نعم، فيَّ الدم. ألا تعرف هذا في النساء؟

تذكرت مونيك في الحمام تنظف شيئها الملوث بالدم. الآن هي إذن مثل مونيك.

ـ أفهم الآن. (أضفت): وكم سيبقَى فيك الدم؟

ـ أف! ثلاثة أيام على الأقل.

فكرت: ها هي فرصة مضاجعتها في الفجر قد ضاعت. شيئي منتصب في منطقة الخوخ. حين أراد أن يتنزه أجفلت منقلبة على ظهرها قائلة:

ـ احشم قليلاً. هذا ما لن أفعله معك.

ـ مجرد نزهة قصيرة ويتم الأمر.

ـ ماذا تقول؟ أنت أحمق أم ماذا؟

ـ ولماذا لا؟

ـ هذا الشيء لا يفعل مع النساء. عيب وحرام. أتفهم الآن؟

ـ حرام؟

ـ نعم، حرام.

تمددت على ظهري مثلها. أتأمل فوق الغطاء بروز شيئي المنتصب.

كيف أجعله ينام؟ إنه عنيد. لأول مرة أراه عنيداً بهذا الشكل. ضغطت على يدها في يدي لحظة ثم وضعتها فوقه. انتظرت أن تلاعبه بيدها كما فعلت معه في أول يوم. لكن يدها ظلت قابضة عليه بتصلب دون أن تتحرك. حين وضعت يدي فوق يدها وجعلتها تلاطفه نزعت يدها وقالت بتذمر:

ـ اتركني. ألا تستطيع أن تنام دون أن تفعل هذا الشيء؟

في هذه اللحظة كانت يدي هي التي حلت محل يدها المتصلبة. بدأت أدلكه وأحمه بلطف. قالت:

ـ ماذا تفعل؟

ـ خليني. (أضفت): لا بد أن أفعل له هذا حتّى ينام. لو كنت مكاني لفعلت له نفس الشيء.

ـ ستوسخني. إذهب إلى الحجرة الأخرى وافعل له ما تشاء هناك. (أضافت): أف من شهوة الرجال.

نزلت من الفراش وأنا أتخيلني قابضاً على أسية عارية بين ذراعي قدام الصهريج. دخلت الحجرة الأخرى قابضاً عليه برفق حتّى لا يبرد. تغطيت بالبطانيتين وأعدته إلى دفء يدي قبل أن يخور.

في الصباح، حوالي التاسعة، تناولنا الفطور صامتين في حجرة الجلوس. هي شاحبة، حزينة، حالمة. أنا أيضاً شعرت بإنهاك وندم على ذلك الإغتصاب الخيالي. أليس جنوناً أن أتخيل جسم أسية وأغتصبها وأنا لم أعرف أهي ما زالت حية أم ميتة؟ كان أفضل لي لو أني نمت متدفئاً بجسم سلافة. كنت أحس بها إلى جانبي تخفق.

تتحرك، ألمسها وأشمها. أسية كانت عدماً في خيالي. كنت استمني على العدم.

لم يجيء أحد. أهو نزيف الدم الذي يحزن سلافة الآن؟ النساء أحياناً يغتصبن، يلدن وينزفن دماً عدة أيام في الشهر. أخشَى أن يكون الكبداني قد سقط في فخ رجال الجمارك. حتّى الآن يبقَى أفضل صديق لي في هذه المدينة. ربما تكون حزينة على بشرى التي لم تعد! الكبداني كان على حق عندما تحدث لي عن سلافة وبشرى. ها هو جنون سلافة الحزين قد بدأ. ماذا قد يحدث لها إذا طال غياب بشرى؟ لا أظن غياب قابيل يحزنها. لست أدري. الأمر غامض. نظرت إليها. إنها غارقة الآن في ذهول تام. مع ذلك يعجبني حزنها هذا. ربما شيء ما في نفسها تذكرت خسرانه. قد تكون الآن تفكر في ضياعه إلى الأبد أو في وسيلة ما لاسترجاعه. من الأحسن أن أخرج وأتركها لنفسها حتّى لا تكرهني. العالم حزين وعفن. نهضت واقفاً:

ـ سأخرج لأرى ماذا يحدث اليوم في المدينة بعد الحادث المشؤوم.

تطلعت إليَّ ذاهلة للحظة. حنت رأسها كما لو أنها لم تستطع أن تفيق من شرودها. ظلت ناظرة في الفراغ وأنا واقف قدامها. قالت بعد لحظة رافعة رأسها بشرود:

ـ هل دفع لك قابيل أجرك عن عملك معه أمس؟

ـ ليس بعد.

ـ انتظرني لحظة.

قامت ودخلت حجرة النوم. لم أرها حزينة بهذا الشكل من قبل.

إنها تشبه بشرى اليوم. تعجبت حين ذكرت اسم قابيل ولم تشتمه كعادتها. ربما لأنها ليست غاضبة. بماذا ستفاجئني؟ قلقي يتضخم. ظهرت حاملة في يدها ثلاث ساعات يد وفي اليد الأخرى ورقتين من فئة مائة بسيطة. نظرت إلى المنديل الجميل الأزرق الذي لفت به رأسها. إنها تشبه الآن إحدى الفرعونيات اللواتي رأيت صورهن المنزوعة من بعض المجلات. نظرت إليها بدهشة وخجل.

ـ هاك هذه الأشياء. بع الساعات واحتفظ بثمنها. لا تقل شيئاً لأحد. حاول أن تبيعها بحذر حتَّى لا يعرف قابيل. إن العمَل مع المهربين لا يدوم. ابحث لك عن عمل آخر.

الكلمات التي كنت أفكر أن أقولها لها تضيع مني قبل أن ألفظها. وزعت الساعات والورقتين على جيوب سروالي وكبوطي. نظرت إلى المفتاح في القفل وسألتها:

ـ هل ستقفلين الباب من الداخل؟

ـ نعم.

فتحت الباب وخرجت. حين التفت ورائي رأيتها واقفة على عتبة الباب تمسح عينيها. توقفت. أحسست أننا نتوادع لآخر مرة. قد لا أراها أبداً. فتاة عين قطيوط، أسية، فاطمة، لم أر إحداهن بعد. استأنفت سيري. لم أستطع أن ألتفت نحوها مرة أخرى. عيناي تدمعان. غمرني إحساس أنها ما زالت واقفة في إطار الباب تتأملني لآخر مرة. قوة نفسية تمنعني من أن ألتفت إلى الخلف. فكرت أن هذه القوة التي تمنعني من الإلتفات والرجوع إلى الكوخ ربما هي نفس القوة

التي تبقيها واقفة تتأمل اختفائي دون أن تستطيع هي أيضاً اللحاق بي لنرجع معاً إلى الكوخ أو لنمضي إلى مكان مجهول. أودع الكوخ لآخر مرة. ربما ايضاً لن أرى أحداً من رفاق الكوخ[1].

(١) أكتب هذه المذكرات في سنة ١٩٧٢. لم أر حتَّى الآن سلافة وصديقتها بشرَى. لقد مضت عشرون عاما. أخبرتني امرأة في سنة ٦٣ أن سلافة وبشرَى دخلتا معاً بورديل بوسبير في الدار البيضاء لتحترفا الدعارة رسمياً في نفس سنة ٥٢. بعد شهور تزوجت بشرَى نادل مقهًى من مدينة الجديدة. بعد فشل زواجها عادت إلى نفس البورديل مع سلافة. لا أدري أين هما الآن.

١١

كنت جالساً مع ليلَى البوالة في غرفتها. لـلازهـور، صـاحبة الـدار، تخدمنا، أحيانـاً، بنفسها. منذ أن غادرت الكوخ وأنا أسكر. الفتيـات في الطابق الأسفل لا يكففن عن الثرثرة. ضاجعت خلال ليلتين ثلاثـاً منهن. رشيـدة أفضلهن. تتلوى في الفراش مثـل حيـة. قـال لي حميـد الزيلاشي عن ليلَى البوالة بأنها تبول في الفراش أثنـاء النوم. حـدث له معها ذلك ذات ليلة. سأنام معهـا الليلة لأرى إن كانت حقـاً تبول في الفراش. صبت ثمالة النبيد من الزجاجة في الكأسين وقالت:

ـ سنطلب زجاجة أخرى، أليس كذلك؟

قلت لها شارداً:

ـ سنطلب زجاجة أخرى. أخرى وأخرى حتَّى نسكر.

قامت ووقفت على عتبة الباب رافعة الستارة بيدها ونادت:

ـ للازهور، آجي عندنا.

تركت الستارة تنسدل والتفتت إليّ قائلة:

ـ مالك؟ إنك مهموم. هل وقع لك شيء؟ ألست مسرورا معي؟

قلت لها مع نفسي: ليس هنـاك ما يفعـل في هذا الـزمان غير أنت

والخمر. أنت أو سواك. نظرت إليها باسماً:

ـ أفكر في بعض الأشياء.

ـ مثل ماذا هذه الأشياء..؟

جلست وابتسمت لي. أكره أن أتكلم حين لا أريد. أشعلت سيجارة وضعتها في فمي ثم أشعلت أخرى لنفسها. فكرت: هذه الحركة أفضل من الكلام عن لا شيء. تذكرت سلافة. تأملت جسدها. جسدها أكثر امتلاء من جسد سلافة وأجمل. شعرها طويل، أسود وأملس. سأتغطّى به. نزهت عيني في جسدها كله. قالت:

ـ مالك تتأملني هكذا؟ ألا أعجبك؟

أكره المرأة حيت تعتبر نفسها مثل سلعة.

ـ قلت لك بأني أفكر في بعض الأشياء.

ـ لا تفكر كثيراً في هذه الأشياء. إنك تبدو حزيناً. أهي امرأة تحبها؟

ـ لا أعرف بعد ما هو الحب.

قالت للازهور قبل أن تدخل:

ـ ها أنا جئت. خير إن شاء الله.

طلبت منها ليلَى أن تدخل. فاحت منها رائحة عطر عربي قوية.

ـ ها أنا. ليلة سعيدة.

قالت ليلَى:

ـ اعطينا زجاجة أخرى.

قلت لها:

ـ سأبيت مع ليلَى. كم؟

ـ ستون بسيطة فقط. لغيرك لا أقل من مائة بسيطة.

دفعت لها الستين والخمس والعشرين ثمن الزجاجة الأخرى. صوت فتاة تنادي من الطابق الأسفل على للازهور.

ـ أنا جاية.

ثم قالت:

ـ أف! كم تصرخ رشيدة!

قالت وهي تهم أن تخرج:

ـ سأرسل لكما الزجاجة مع رشيدة أو عليوة العروسية.

خطوات ثم دقتان على الباب. قالت للازهور:

ـ من؟

قال الصوت الذي أعرفه جيداً:

ـ أنا، هل ممكن؟

أزاحت للازهور الستارة جانباً وظهر القندوسي. قالت له للازهور:

ـ جانا الخير. أنت هو إذن. يعيش من يراك. ما هذه الغيبة. غبت عنا كثيراً.

قال لي:

ـ أنت هنا مختبىء وأنا أبحث عنك كالأحمق في كل مكان. هيا. قم.

قالت للازهور بلطفها كالعادة:

ـ آلسي القندوسي، اجلس معنا شوية. اشرب شي حاجة.

اعتذر لها ووعدها أن نعود غداً أو بعد غد.

عندما قمت سألتني للازهور:

ـ وأنت، هل ستعود هذه الليلة؟

قلت لها تلقائيا:

ـ طبعاً سأعود. ألم أدفع لك ثمن المبيت مع ليلَى؟

قالت:

ـ دق على الباب إذا وجدته مقفلاً.

سألتني ليلَى:

ـ متَى ستعود؟

نظرت أنا إلى القندوسي وقال لها بمرح:

ـ سيعود وقتما يشاء. إذا تأخر فنامي، لكن وحدك وليس مع زبون آخر.

ابتسمت ليلَى. قالت للازهور:

ـ كن مطمئناً على صديقك. ليس لنا سبعة وجوه. وجهنا واحد مع الجميع.

هبطنا وتركنا للازهور مع ليلَى. سألته في الدرج:

ـ أين هو الكبداني؟

ـ هذا ليس مكان الكلام. ستعرف كل ما حدث عندما نخرج.

في أزقة حي بني شرقي التقينا بكثير من السكارى. أحياناً يتوقف ليصافح أحدهم. اكتشفت أنه يعرف كثيراً من الناس. كلهم يسلمون عليه باحترام وود. كنا نسير دون أن نتكلم. عندما وصلنا ساحة السوق الداخلي سألني:

ـ في أي مقهَى تريد أن نجلس؟ في الفوينتس؟ في السنترال أو في لا اسبانيولا؟

تركت له الخيار. دخلنا السنترال. قبل أن نجلس طلبت كأس كونياك وطلب هو كأس جين. جلسنا في ركن خال. سألني:

ـ لكن أين كنت؟ لقد فتشت عنك في كل مكان.

ـ هنا في طنجة. أين تريد لي أن أكون؟

ـ وأين تنام؟

ـ عثرت على محل اقامة في القصبة، في طريق بنعبو.

ـ أليست هي الدار الملاصقة للمدرسة؟

ـ تماماً.

ـ أنك تسكن في مأوى اللصوص والمغامرين والبغايا.

ـ في الفنادق الأخرى طلبوا مني أوراق التعريف. أنا لا أملك أية أوراق.

صب لنا النادل الاسباني المشروبين في كأسين صغيرين. انسحب النادل وقال لي:

ـ الكبـداني مات.

قلت بصوت ضعيف، فاتحاً عينيّ، فاغراً فمي:

ـ مات؟

ـ نعم مات. رحمة الله عليه.

شربت كأسي دفعة واحدة ثم ناديت على النادل. أشعلت سيجارة. شرب القندوسي كأسه.

قلته له:

ـ زجـاجـة كونياك كاملة.

وافق على أن نشرب معاً نفس الشراب.

ـ كيف مات؟

ـ عندما عاد كان المركب قد فرّ من زورق الجمرك. اضطر الكبداني أو يعود إلى الشاطىء. لقد اصطدم زورقه مع الصخـور. عثروا عليه ميتاً وزورقه انقذف محطماً إلى الشاطىء.

جاءنا النادل بزجاجة التري. ملأ لنا الكأسين وانصرف.

سألته عن قابيل.

ـ مقبوض.

ـ لماذا؟

ـ يريدون أن يثبتـوا عليه مـوت الكبداني. أنهم يعـرفون أنـه يعمل معه.

ـ والمركب؟

ـ أوقفه رجال الجمارك وفتشوه ثم سرحوه.

ـ وهل اعترف قابيل بشيء؟

ـ حتّى الآن لم يعترف لهم بشيء.

شربت كأسي وملأته.

ـ أنك ستسكر إذا استمررت بهذا الشكل. (أضاف): قل لي، لماذا تركت المفتاح لسلافة؟

ـ هي التي طلبتـه مني. لم أستطع أن أرفض. لقـد كـانت هي التي تحكم في الكوخ.

ـ أعـرف هذا. (أضـاف): لقد هـربت. جمعت مـا استطـاعت أن تحمله معها وغادرت.

ـ إلى أين؟

ـ لا أعرف. ما هو مؤكد هو أنها غادرت طنجة. هكذا تنتهي دائـماً العشرة مع القحاب.

ـ وبشرى؟

ـ لا بـد أن تكون قـد هـربت معهـا. أنهما لا تفـترقـان منـذ كـانتـا صغيرتين.

فكرت: لا بد أنهما ذهبتا معاً إلى الدار البيضاء. نـظرت إلى ساحة السوق الداخلي والمقاهي الغاصة بالليليين والسكارى وقلت له:

ـ لقد عادت الحالة إلى طبيعتها بعد الحادث المشؤوم.

ـ لكن الحالة السياسية ليست بخير في المغرب كله. لا بد أن تحدث

حوادث أخرى أعنف من حادث ٣٠ مارس.

لقد جاء الأوان الذي سيطالب فيه المغاربة بالاستقلال.

ـ الكبداني كان قد قال لي بأنه لم تمر غير ست جنائز والناس يعرفون أن عشرات من المغاربة قد قتلوا.

ـ هذا صحيح. لقد بدأت تظهر بعض الجثث التي يقذف بها البحر إلى الشواطىء.

ـ رموا اذن في البحر جثث الذين ماتوا في الحادث.

ـ معظم الناس يعتقدون أنهم رموا بعض المغاربة أحياء وجرحَى في أكياس. بعض الجثث لم يكن ظاهراً عليها أية آثار للرصاص. عثر الناس على جثة شاب سليمة في شاطىء العرائش والقيد ما زال في يده.

ـ غريب.

ـ من المحتمل أن تظهر جثث أخرى.

شرب كأسه وقال:

ـ الحديث في هذه القضية طويل. عندي خمسمائة بسيطة أجرة عملك في تلك الليلة. كنت سأعطيها لك في هذه الليلة لكن من الأفضل أن أعطيها لك غداً.

ـ كما تريد.

ـ سأتركها لك عند سيدي مصطفَى، صاحب قهوة الرقاصة. أنه رجل طيب وأمين، هل تعرفه؟

ـ نعم، لقد ترددت على قهوته مرات.

فكرت: أنه يشفق عليّ أن أبددها في هذه الليلة.

ـ عندي شيء آخر أقوله لك.

ـ ما هو؟

ـ ينبغي لك أن تحافظ على سرية عملنا. أن الحمالين الثلاثة الذين عملوا معنا رجال شجعان. لا خوف منهم، لكننا لا نعرف ما قد يحدث. إذا قبضوا عليك واستجوبوك فأنكر تماماً أنك اشتغلت معنا. قد يضربونك، لكن عليك أن تصمد.

قلت معتدا بنفسي:

ـ كن مطمئناً.

ـ من حسن الحظ أنك لست معروفاً بين الحمالين الذين يعملون في التهريب.

ـ ألا تظن أن قابيل قد يعترف إذا هم عذبوه كثيراً؟

ـ أنهم حتماً سيضربونه، لكني لا أظن أنه سيعترف لهم.

ـ والسلعة؟

ـ سلمناها لصاحبها الهنداوي في نفس الصباح.

بعد لحظة قال:

ـ من الأحسن أن تذهب وتنام الآن في فندقك، لكن حاول أن تغير مكان اقامتك. سأحاول أن أعثر لك على سكنَى لا يتعدى ثمن كرائه خمسين بسيطة في الشهر.

ـ والكوخ، من ينام فيه الآن؟

ـ لا أحد. لقد تركت سلافة المفتاح عند بقال الحي الـذي يتعامـل معه قابيل. لم يعد صالحاً لشيء ذلك الكوخ بعد أن قبضوا على قابيل.

ـ تقصد أن الكوخ ربما أصبح مراقباً من طرف الشرطـة.

ـ من يعرف! محتمل.

نهضنا. الزجاجة ما زالت منصفة. قلت له:

ـ هل تسمح أن آخذها معي؟

ـ خذها، لكن إياك أن تعود عند ليلَى البوالة هذه الليلة.

ـ لا أفكر في ذلك. سأذهب لأنام.

ـ أنك ما زلت شاباً وأيام الله طويلة.

تركته يدفع للنادل الحساب ووقفت خارج المقهَى أنتظره. صـافحني قائلاً.

ـ أظن أنك تستطيع أن تذهب وحدك إلى فندقك.

ـ لم أعد طفلاً.

ابتسم وانصرف. سلكت طريق التجارة. التقي في الدروب ببعض السكارى والبغايـا واللوطيين. السـاعة حـوالي منتصف الليل. أتـرنح قليلاً.

في درج جنـان قبضان اعـترضني شاب سكـران. الطريق خـاليـة. التفت خلفه وقال لي:

ـ آ! الغزال! فأين ماشي؟

ـ شغلك؟

قال بهزء مادا يده إلى الزجاجة:

ـ وهذه الزجاجة في يدك، ألا نشربها معاً؟

قلت له بحدة:

ـ اطلق يدك وامشي فحالك.

تجنبته لأمر. اعترضني بوقاحة قائلاً:

ـ أنـا أسكن قريبـاً من هنا. في درب زينـانة بالذات. تعـال معي. سنقضي الليلة معاً. (أضاف بغزل سخيف، محاولاً أن يلمس وجهي): لماذا أنت هكذا صعب؟.

قلت له بغضب:

ـ ماذا تريد مني بالضبط؟

ـ أن نقضي الليلة معاً.

قلت له ماسكاً الزجاجة من عنقها في يدي:

ـ لماذا لا تنام مع أمك أو أختك؟

صرخ كوحش:

ـ تسب لي الوالـدة. لم تبق إلاّ أنت في حسابي.

تراجعت قليلاً إلى الوراء وهو يقترب مني. سدد لي ركلة إلى أسفـل بطني. تقوست حامياً أسفل بـطني بيـدي من ضربة أخـرى ونجوم الألم تدور أمام عينيّ. ركلني مـرة أخرى في نفس المكـان. سقطت متكـوراً عـلى الدرج. تكسرت الـزجاجـة. بقي عنقها في يـدي. تفاديت ركلة

سددها إلى وجهي. أصابتني في يدي التي حميت بها وجهي. ركلات أخرى. أحاول ألا تصيبني احداها في وجهي. صوت شابة تقول له من نافذة:

ـ كفاه! لا تضربه هكذا. أنه أصغر منك.

تفاديت ركلة قوية. فقد توازنه وسقط على قفاه. استجمعت قواي وقمت بسرعة وركلته في وجهه.

الشابة تقول:

ـ كفاكما! ستقتلان بعضكما.

يحمي وجهه وأنا أركله. حين ضربته بعنق الزجاجة على يديه اللتين يحمي بهما وجهه صرخ مثل حيوان:

ـ أيما وجهي! أيما وجهي! يلعن دينك!

هربت وتركته يصرخ ويسبني. قالت الشابة:

ـ هذا ما كنتما تريدانه. هذا ما تريدانه.

سقطت مرات في الدرج. الدم يسيل من وجهي وركبتي ويدي التي أمسك بها عنق الزجاجة. كنت ما زلت أسمع صراخه عندما بلغت باب العصا. أخرجت منديلي ووضعته على أنفي. الدم يسيل من أنفي وفمي.

في مدخل درب بنعبو عثرت في العتبة ووقعت. تركت المنديل وعنق الزجاجة هناك. بذلت آخر جهدي لأبلغ باب الفندق. النافذة مفتوحة والغرفة مضاءة. ناديت بصوت مخنوق:

ـ الزيلاشي! انزل بسرعة!

أطل عليّ هو ونعيمة وفوزية. قال:

ـ محمد، مالك؟

ـ انزل بسرعة!

بعد لحظة فتح الباب ورأيته أمامي عاري القدمين ماسكاً سكيناً في يده.

ـ مالك؟

قلت له ماسحاً دم وجهي بكم كبوطي:

ـ تعاركت مع سكير. أعتقد أنه يتبعني.

أطل بوشتا من النافذة:

ـ أنا نازل.

سألني الزيلاشي:

ـ هل هو وحده؟

قلت باصقاً دمي:

ـ نعم.

ـ أتمنّى أن يكون قد تبعك.

أترنح راكضاً خلفه. عند المنعطف قلل من سرعته. توقف وأطل بحذر على مدخل الدرب ثم ركض وتوقف مرة أخرى عند المنعطف الذي يؤدي إلى ساحة القصبة. سأل:

ـ أين تركته؟

ـ في درج جنان قبطان.

لحق بنا بوشتا. هو أيضاً كان حافي القدمين، ماسكاً هراوة. لم نجده. قالت لنا نفس الشابة من النافذة:

ـ لقد ذهب. كونوا عاقلين. إنكم أيقظتم سكان الحي.

نساء ورجال يطلون علينا من النوافذ والسطوح. بقعة دم في المكان الذي تركته فيه. تتبعنا آثار الدم عدة أمتار ثم توقفنا عند آخر نقطة من الدم. قال الزيلاشي:

ـ ليتنا نعرف من أين يكون قد سلك.

قلت له:

ـ كفى. لنرجع.

ـ لقد أفلت ولد القحبة.

في طريق عودتنا إلى الفندق قصصت عليهما من بداية اعتراضه طريقي حتَّى اللحظة التي ضربته بعنق الزجاجة وهربت. بوشتا يمشي إلى جانبنا صامتاً. أعرف أنه لا يستطيع الإقتراب حتَّى من دجاجة تحضن بيضها. مع ذلك وجوده معنا مشجع على مواجهة أية مفاجأة. سألني حميد:

ـ هل تعرف تلك الشابة التي كانت تكلمنا من النافذة؟

ـ لا، من تكون؟

ـ اسمها فتيحة الشريفة. زوجها كان شرطياً مسلولاً يتداوى في منزله. كان يتردد عليه أحد أصدقائه من الشرطة. كانت تدخن وتشرب بإفراط مع صديق زوجها. أحياناً يدخن ويشرب معها حتَّى

يتقيأ الدم. أظن أنه كان يعرف أن زوجته تخونه مع صديقه. ذات ليلة أخذ يغازلها أمامه. أراد أن يطعنه بسكين، لكن صديقه أخرج مسدسه وأطلق عليه النار.

سألته:

ـ وهل قتله؟.

ـ مات في المستشفى.

ـ وهي، ماذا فعلوا لها؟

ـ أجروا معها تحقيقاً وسرحوها.

قال بوشتا:

ـ حكاية النساء في الحب دائماً قذرة.

قال حميد:

ـ لها معه طفلتان. لقد رباها المسيحيون حتَّى جعلوا منها ممرضة في مستشفاهم التبشيري. تعرف ثلاث لغات أجنبية، لكن عقلها في فرجها مثل معظم النساء.

رأينا نعيمة المسرارة وفوزية العشاقة تطلان علينا من النافذة. قال حميد:

ـ نعيمة، افتحي الباب.

قالت:

ـ الباب غير مسدود. ادفعه.

عندما دخلنا سمعت أصواتاً وضحكات وشتائم داعرة. أدركت أن

بعض النزلاء ما يـزالون يسهـرون في الطابق الأسفـل والأعلىَ. خـرج الحارس الليلي من حجرة في الطابق الأسفـل والسيجارة في فمـه. يبدو عليه أنه يشرب مع الجماعة الساهرة في تلك الحجرة. سألنا:

ـ هل الأمور بخير؟

قال حميد:

ـ يلعن دين الحياة والذي يحبها.

صعدنا الـدرج وتركنـاه واقفاً يتـأملنا. دخلنـا غرفتنـا الكبيرة، التي جعـل منها صـاحب الفندق ثـلاث غرف صغـيرة بـواسـطة حـاجـزين خشبيين. كانوا يسهرون في غرفتي. حميد الزيلاشي وبـوشتا يسهـران، أحياناً، في غرفتي حتّى في غيبتي. كانت الغرفة الوحيدة في الفندق التي لها نافذة تطل على درب بنعبو. قال بوشتا لصديقته:

ـ فوزية، اهبطي إلى المطبخ وسخني بعض الماء في الغلاية.

تنبه حميد إلى تمزق سروالي عند الركبة وقال:

ـ آجي معاي إلى الغرفة الأخرى.

دخلنـا غرفتـه وفتح حقيبتـه. أخرج سرواﻻً من الصـوف ومـده لي قائلاً:

ـ انتظر حتّى تأتي فوزية بالماء الساخن لتنظف لك جروحك.

طلبت كأس كونياك. جاءت فوزية حاملة المغلاة. قالت نعيمة:

ـ ها هو الكونياك.

طلبت مني فوزية أن أخلع ثيابي. ترددت. قالت:

ـ هل أنت حشمان؟

خلعت كبـوطي وسروالي أمـامهـما وبقيت في الكلسـون والقميص. مـرفقي الأيسر منسلخ وملطخ بالـدم. تركت لهـما نفسي وتعاونتـا عـلى تنظيف جروحي بالماء الساخن والكونياك.

كان حميد يفتح زجاجة كونياك أخرى عندما سمعنا دقات قوية عـلى الباب. أردت أن أنهض لأفتح الباب لكن حميد أمسكني قائلاً:

ـ أجلس مكانك. لابد أن يكون قواد هو الذي يدق بهذا الشكل.

ترك الزجاجة من يده وقام. دقـات أخرى قـوية عـلى الباب. قـال حميد:

ـ من يدق؟

قال صوت بخشونة:

ـ افتح الباب.

شحب وجها نعيمة وفوزية. قالت نعيمة:

ـ البوليس. لا يمكن أن يدق الباب هكذا إلا البوليس.

قال لي بوشتا:

ـ خبي الزجاجة في مكان ما.

كنت جالساً على المطربة. بوشتا وفوزية ونعيمة كانوا جـالسين عـلى الفراش. أبقيت الزجاجة في يـدي. لقد اضـطربت. نهضت وأطللت من النافذة. رأيت شرطيين باللباس الرسمي واقفين قدام الباب. فتح حميد الباب ودخل شرطيان سريان. قال الأول:

ـ لماذا لم تفتح بسرعة؟ تكلموا.

طلب مني الزجاجة وأعطيتها له. فحصها قائلاً:

ـ تشربون كونياك تري إذن. أوراقك.

ـ لا أوراق لي.

التفت إلى بوشتا:

ـ وأنت.

أخرج بوشتا ورقة التعريف الشخصي ومدها له. تأملها ووضعها في جيبه. التفت نحو الفتاتين وقال لهما:

ـ تقحبان في هذه السن الباكرة. البسا جلابيكما بسرعة.

قيدني الشرطي الثاني مع الزيلاشي. في الطابق الأسفل وجدنا هناك ثلاثة شبان وفتاتين يحرسهم شرطي سري. إثنان مقيدان مع بعضهما. أمسك الشرطي يد بوشتا وقيدها مع يد الشاب الذي كان ينتظر شريكه في القيد. نحن الستة سرنا إلى الأمام والفتيات خلفنا غير مقيدات سلكنا الطريق التي تقود إلى القصبة. صاح شرطي في شابين يتهامسان وراءنا:

ـ كفَى من الكلام.

في ساحة القصبة كانت هناك سيارتا جيب. ركبنا نحن في سيارة وركبت النساء في الأخرى. ركب معنا ثلاثة شرطين وركب الإثنان الآخران في الثانية. فكرت: أننا صيد ثمين لهم هذه الليلة. كنا متزاحمين في السيارة.

في سوق الزراع اتجهت بنا سيارتنا نحو القسم الجنائي واتجهت

السيارة الأخرى نحو السوق البراني. لا شك سيذهبون بهن إلى مخفر السوق الداخلي.

أدخلونا إلى مكتب وفتشونا الواحد تلو الآخر. خلعوا لنا الأحزمة وسيور الأحذية والدراهم وتركوا لنا السجائر والوقيد. وجدوا عند أحد الثلاثة الذين قبضوهم معنا مقشطاً صغيراً. قال له الشرطي الذي فتشه:

ـ وهذا، ماذا تفعل به؟ تكلم. سنرى فيها بعد.

بعد أن سجلوا أسماءنا، قادنا، أنا والزيلاشي، شرطي في ممّر صغير والمفتاح في يده. توقفنا عند باب. قبل أن يفتحه لحق بنا شرطي كان قد ركب معنا في السيارة. فتح الشرطي الباب ودفعنا الآخر الذي كان يحرسنا في السيارة إلى داخل حجرة مضاءة. كان هناك ثلاثة مساجين آخرين. استيقظ إثنان منهم وظل الثالث نائماً. فك لنا الشرطي الذي دفعنا القيد ثم انسحب بسرعة وأغلق علينا الباب بعنف. فكرت: إن كل حركة هنا تشكل نوعاً من العقاب. دلكت رسغي الأيسر الذي كان يؤلمني قليلاً. تأملت الباب المصفح وفكرت: إن هذا الباب أكثر صلابة من البابين اللذين أغلقا عليّ من قبل. الأبواب تزداد صلابة. أخيراً ها أنا في سجن حقيقي. قال لي حميد الذي جلس على الأرض واضعاً ذراعه على ركبتيه:

ـ اجلس. (ثم أضاف): كل هذا يحدث بسبب الخمر والنساء في بلد مسلم يحكمه النصارى. لسنا مسلمين ولسنا نصارى.

جلست الى جانبه قبالة الشابين المستيقظين. كانت الأرض باردة كالثلج. على الجدران وفي السقف علامات الرطوبة. في ركن كان هناك مرحاض مسطح وصنبور فوق ثقب المرحاض. فكرت: إن كل

ما يحتاج إليه الواحد هنا يشكل عقاباً قاسياً.

بدأت الرائحة الكريهة تغثيني وأنا أتأمل المرحاض. أعطاني حميد سيجارة شقراء ثم أعطى سيجارتين للشابين. كان الثالث الذي لم يستيقظ ينام في وضع مقرفص. سأل حميد أحدهما عن الشاب النائم:

ـ ماله؟

قال له:

ـ سكران.

ـ أحسن له في هذا البرد.

كانا يرتعشان بردا. سأل حميد:

ـ منذ متَى وأنتما هنا؟

قال نفس الذي تكلم من قبل:

ـ قبضونا هذا المساء. كنا نلعب الورق في قهوة دبو.

كان الشاب الآخر يدخن في صمت خافضاً رأسه. لم يكن يرفع رأسه إلا ليرشف رشفة عميقة من سيجارته ثم يخفض رأسه إلى الأرض. الدخان ينفثه ضعيفاً كالزفير في صباح بارد.

في الصباح بدأنا كلنا نرتعش برداً. نخفي وجوهنا بين الركبتين كلما قام أحدنا ليتغوط أو يبول. الرائحة الكريهة تزداد في المرحاض. أنا وحميد والشاب الثالث الذي وجدناه في الليل نائماً شربنا كثيراً من الماء. دائماً يحدث لي مثل هذا العطش في الصباح حينما أسكر. وقف حميد وأخذ يقوم بحركات رياضية. كان مرحا. قال لي:

ـ قم وافعل مثلي إذا أردت أن تتدفأ.

قلت له بتعب:

ـ ليس الآن.

الأشخاص الآخرون يتطلعون إليه كلما قام بحركة عنيفة. كنت أنظر إليه باستمرار. قال لي:

ـ انهض. إنك كسول. ليس أحسن من هذه الحركات لطرد البرد والتعب.

ـ إن جروح ركبتي ومرفقي تؤلمني. سيسيل منها الدم إذا أنا قمت بنفس هذه الحركات.

بدأ يلهث وحركاته تثقل وتتباطأ. ذهب إلى ثقب المرحاض وبصق. فتح صنبور الماء وغسل وجهه ويديه ومسد شعر رأسه بقليل من الماء. أقعَى وبال وغسل عضوه ويده التي أمسك بها شيئه. شرب قليلاً من الماء وعاد يجلس في مكانه واضعاً يديه فوق ركبتيه. كانت قطرات الماء تتساقط من أطراف أصابعه وذقنه. خفض رأسه. تنفسه يهدأ. رفع رأسه إليّ. تبادلنا نظرات باسمة ثم أطلق ضحكة عالية. لم أستطع أنا أيضاً أن أكتم ضحكتي. قال:

ـ أولاد القحاب. اصطادونا كما تصطاد القطط الفئران.

سألته:

ـ أين تظن أنهم أخذوا الفتيات؟

ـ إلى كوميساريا السوق الداخلي.

ـ هل تعتقد أنهم سيحاكموننا بتهمة الفساد؟

ـ لا أعتقد. إننا لم نقم بأية فوضَى. لقد وجدونا نسكر فقط مع قحبتين.

ـ كم من أيام تظن أننا سنبقى هنا؟

ـ حتىً يوم الاثنين أو الثلاثاء. على الأكثر. اليوم السبت.

بعد لحظة قال:

ـ أنت محظوظ. (أضاف): وكذلك بوشتا. إنه مجرد خياط.

قلت له بدهشة:

ـ أنا محظوظ؟

ـ نعم. ليس لك سوابق ولم تدخل قط السجن. أما أنا فلي سوابق وقد يتهموني بسرقة جديدة لم أرتكبها.

ـ لماذا لم يحبسوا بوشتا معنا هنا؟

ـ إنها مجرد صدفة. ما أظنهم أخذوه إلى حجرة أخرى عمداً. سيسرحونه هو أيضاً يوم الاثنين أو الثلاثاء.

ـ بهذه السهولة؟

ـ سترى. أنا أعرف جيداً كيف يتصرفون.

بعد لحظة سألته:

ـ ونعيمة وفوزية؟

ـ هما أيضاً ستخرجان. في أسوأ الأحوال سيرغمونهما على الدخول إلى البورديل اجبارياً لكي تخضعا للمراقبة الطبية مرة كل أسبوع. أعتقد أن بوشتا سيتزوج فوزية.

ـ هل يحبها؟

ـ لا أدري، لكنه قال أنه يريد أن يعيش معها.

ـ وأنت؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ علاقتك مع نعيمة.

دَوَّرَ سبابته على صدغه وقال:

ـ أنت أحمق. إنها مثل بقية القحاب اللواتي عرفتهن. لم أخلق لأتزوج قحبة.

سمعت خطوات قرب الباب. التفتنا جميعاً صوب الباب. فتحت الكوة الصغيرة. فتح الباب بصخب وسرعة. فكرت: أنهم يتعمدون مثل هذا الصخب والسرعة ليخيفونا. هذا الفعل يشكل أيضاً جزءاً من العقاب.

دخل رجلان هرمان: واحد يحمل غلاية كبيرة وقفة فيها أكواب من الصفيح والآخر كيساً أبيض من القماش فيه خبز. حيانا الرجلان ووقف شرطي خلفهما. تسلمنا منهما خبزة وكوب شاي أخضر لكل واحد منا. قال لنا الشرطي:

ـ لكم ربع ساعة لتفرغوا الأكواب.

انسحب الرجلان واقفل الشرطي الباب. الكوة الصغيرة تركت مفتوحة. كان الشاي والخبز الأسود ساخنين. كنا نأكل صامتين. قال لي حميد:

ـ اترك نصف خبزتك للمساء. أنهم لا يعطون شيئاً آخر حتىً الغد في مثل هذه الساعة.

هززت له رأسي. بعدما انتهينا من الأكل أعطَى حميد سيجارة

للآخرين ليدخنوها فيما بينهم. هو وأنا تناوبنا على تدخين سيجارة أخرى. الشابان اللذان قبضوهما في قهوة دبو لم يتركا شيئاً من خبزهما. الشاب الثالث وفرّ أكثر من نصف خبزته. كذلك فعلت أنا وحميد. قمت إلى الصنبور وشربت كثيراً. في الصباح يحل العطش محل شهية الأكل. هذا ما يحدث لي كلما سكرت. ندخن في صمت. الدفء يشيع في جسمي. ندخن ونحسو بقية الشاي جرعة تلو جرعة. ربما الكوة المفتوحة هي التي فرضت علينا هذا الصمت. فكرت: كيف ستصير حياتنا في المستقبل لو كان محكوماً علينا أن نقضي حياتنا في هذا الوضع وفي هذه الحجرة؟ لا شك أننا سنظل نمثل أدوار حياتنا حتى نمل ماضينا وحاضرنا. سننتهي إلى صمت أبدي. سنختفي الواحد أثر الآخر. أتعسنا هو الأخير في الاختفاء.

فتح الباب ودخل الرجل الذي حمل لنا الشاي. وقف شرطي الحراسة خلفه. شربنا ثمالة الأكواب بسرعة ووضعناها له في قفته التي حملها معه. كان فيها أكواب أخرى. قال لنا منسحباً:

ـ الله يعفو عليكم وعلينا.

قال له بعضنا:

ـ آمين!

أغلق الشرطي الباب والكوة بصخب. فكرت: لم تعد هذه الحركات العنيفة تثير في أية رهبة. مع الزمن قد لا تثير حتى الالتفات إليها، وكذلك وضعنا هذا.

أخرج حميد قلم رصاص صغير وأخذ يكتب على الحائط. سألته:

ـ ماذا تكتب؟

ـ أكتب بيتين للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي.

ـ ماذا يقول هذا الشاعر؟

ـ هذا ما يقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

قلت له بإعجاب:

ـ عظيم.

ـ هل تفهم ما يقول؟

ـ كلا، لكنه عظيم. أُحس أنه عظيم. (أضفت): ما معنَى الذي يقوله؟

ـ إرادة الحياة، هذا هو معنَى ما يقوله.

ـ وما معنَى إرادة الحياة؟

ـ إرادة الحياة معناها هو أنه إذا كان هناك شعب مستعبَد أو إنسان ما وأراد أن يتحرر فإن الله يستجيب له، والفجر يستجيب والقيد يتهرس بقوة إرادة الإنسان.

ـ إنني أفهم الآن.

لاحظت أن الرفاق كانوا يتبعون باهتمام ما يقوله حميد. قلت له:

ـ إنك محظوظ.

قال مندهشاً:

ـ أنا محظوظ؟

ـ نعم، أنت محظوظ.

ـ لماذا؟

ـ لأنك تعرف كيف تقرأ وتكتب.

ـ أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم إذا شئت.

كتب شيئاً آخر على الحائط وسألني، واضعاً رأس قلم الرصاص القصير على الحرف الأول:

ـ ما هذا؟

ـ لا أدري.

ـ هذا ألف.

ثم أشار إلى الحرف الثاني:

ـ وهذا؟

ـ لا أدري.

ـ هذا حرف باء. وهذا؟

ـ التاء.

سألني بدهشة:

ـ كيف عرفت؟

ـ لأنني سمعت الناس دائماً يقولون: ألف، باء، تاء....

ـ عندك الحق.

رددت معه الحروف الثلاثة وقال:

ـ من هذه الحروف الثلاثة يمكن لنا أن نستخرج بعض الكلمات مثل: أب، باب، بات، ألخ...

جلس وقال:

ـ ذات يوم سأعلمك القراءة والكتابة. عندك استعداد لكي تتعلم.

طلبت منه أن يعيد عليّ البيتين للشاعر التونسي عدة مرات حتّى حفظتهما.

في المساء، أخذ الشاب الثالث يتمشّى في الحجرة متوتراً. كنا جالسين صامتين. أمسك كسرة خبزه التي وفرها في الصباح وفتتها ثم رماها في ثقب المرحاض. نظرت إلى حميد. قال لي بهمس:

ـ ليس شغلنا. ليفعل بخبزه وبنفسه ما يشاء.

كان الشابان يتأملان الشاب العصبي بغضب. فكرت: ستحدث مشادة إذا أتى هذا الشاب بحماقة أخرى.

قال له أحد الشابين:

ـ لماذا رميت الخبز في المرحاض؟

أجاب بحدة:

ـ أنا حر في أن أفعل بخبزي ما أشاء.

ـ لكنك رميت نعمة الله.

ـ أنا حر. بيني وبين الله.

ـ إنك خراء.

ـ أنت هو الخراء.

خـطَى خطوتـين وراح يضرب يديـه ورأسه مـع الحـائط حتّى سقط مغشياً عليه والدم يسيل من جبهته ويديـه. قام حميـد ودق على البـاب بعنف. فتحت الكوة وسأل شرطي الحراسة:

ـ ماذا وقع؟

ـ هناك واحد ضرب نفسه مع الحائط. الدم يسيل منه.

عاد ليجلس وقال:

ـ هذا فقط ما يجب علينا أن نفعله.

قال نفس الشاب الذي كان قد عاب عليه ما فعله بخبزه:

ـ هذا هو عقاب الله في حينه.

فتـح الباب ودخـل شرطيـان سريـان وشرطي الحـراسـة بـاللبـاس الرسمي. سأل الشرطي السري الأول:

ـ ماذا وقع هنا؟

قال له حميد:

ـ فتت كسرة خبزه ورماها في المرحاض ثم طفق يضرب رأسه ويديه مع الحائط.

سأل الشرطي الثاني:

ـ وماذا حدث قبل ذلك؟

قال له حميد:

ـ لا شيء.

ـ ألم يتشاجر مع أحد؟

نظر حميد نحونا ثم التفت إليهم:

ـ أبداً. إسألوه عندما يفيق.

إقـترب الشرطي السري الأول وتأمـل لطخـات الدم عـلى الحائط. قال الثاني:

ـ سنَرى فيما بعد أن لم يكن قد تخـاصم مع أحـدكم قبل أن يضرب نفسه.

كان هامداً والدم ينزف من جروحه. خرجوا وأقفل البـاب. تركت الكوة مفتوحة. بعد حـوالي ربع سـاعة دخـل الشرطة الثـلاثة ورجـلا إسعاف وحملاه في نقـالة. كـان ما زال مغمى عليـه. تخلفت في مكانـه بقع دم. أغلق الباب وتركت الكوة مفتوحة. قلت لهم:

ـ لا بد أنه مريض.

قال حميد:

ـ ليفعل بنفسه ما يشاء. (أضـاف): يبدو أنـه مدمن عـلى الخمر أو الكيـف.

قال الشاب الأول:

ـ إنه سخط اللّـه أو سخط الوالدين.

قال الثاني:

ـ كل واحد يعاقبه الله على أفعاله.

كـانت سجائـرنا قـد نفدت. الأعقـاب التي رميناهـا كانت قصـيرة جداً. التقطت واحداً ودخنته.

صباح الاثنين استيقظنا منهكين. كان الشابان مقرفصين. لم يقم حميد بحركاته الرياضية. كان شاحباً، لكنه أقلنا تعباً. ربما يكون متعوداً على الحبس. شعرت برغبة في القيء. إذا تغوط احد الرفاق فإني حتماً سأقيء. حالتي تذكرني بظهيرة ذلك اليوم في مرفأ الصيادين.

فتح الباب ونادَى شرطي الحراسة على اسمي. حين وقفت شعرت بدوخة وتعب في ركبتي. ودعتهم رغم أني لم أكن واثقاً من تسريحي. تبعت الشرطي إلى الطابق الأعلى وأنا أجر حذائي بلا سيرين. كان مجرد خروجي من تلك الحجرة يعني لي نصف حريتي. أدخلني الشرطي إلى غرفة تنتصب وسطها آلة تصوير كبيرة. إنسحب الشرطي وأمرني المصور أن أجلس على المقعد المقابل لآلة التصوير. الغرفة دافئة. الحجرة التي خرجت منها تشبه ثلاجة. اقترب مني وسوى وضعي أمام الآلة. وقف وراءها وأمرني أن أنظر إلى عدستها ولا أتحرك. أخذ لي صورتين أخريين جانبيتين. لا بدّ أن يجعلوا لي ملفاً عندهم هنا.

سألني عن اسمي ثم أراني كيف أضع إصبعاً إثر إصبع في المدادية وكيف أطبع بصماتي في ورقة بيضاء مقواة. دخل شرطي سري وتكلم مع المصور المغربي. تارة يتكلمان بالفرنسية وتارة بالإسبانية. حين انتهى ألقى نظرة على ورقة مكتوبة وسألني إن كنت أعرف كيف أوقع اسمي. أجبته بالنفي. قال الشرطي السري بالإسبانية:

ـ كيف تطلب منه ذلك! إنه مثل معظم المغاربة.

قال له المصور بالإسبانية:

ـ هذا طبيعي.

أمرني المصور أن أطبع إبهامي في المدادية وأوقع في أسفل الورقة المكتوبة. لم أجرؤ أن أسأله عما هو مكتوب فيها، لكني قلت له بأنني لم أفعل شيئاً خطيراً. قال لي:

ـ هذا ليس شغلي. أهبط الآن عند الشرطي الذي صحبك إلى هنا.

سألني الشرطي السري بالإسبانية عن العمل الذي أمارسه. قلت له بالإسبانية:

ـ نادا (لا شيء).

قال:

ـ وبماذا تعيش إذا كنت لا تمارس أي عمل؟

ـ هكذا. (أضفت): إنني أمارس أي عمل أعثر عليه.

ـ إذهب الآن.

خرجت أجر حذائي. في الطابق الأسفل لم أجد شرطي الحراسة. ظللت واقفاً في الممر والباب مفتوح أمامي. أرَى الناس يمرون في الخارج. دخل رجلان باللباس المدني وتخطياني. لا بد أنهما شرطيان سريان.

خرج شرطي الحراسة من مكتب وسألني:

ـ هل أنتهى معك المصور؟

ـ نعم.

قادني إلى نفس المكتب الذي خرج منه. كان هناك اثنان آخران.

جعلوني أوقع بإبهامي ورقة أخرى مكتوبة. أعطيت اسمي لأحدهما وسلم لي نقودي وحزامي وسيري حذائي. فكرت: ماذا كتبوا أيضاً عني في هذه الورقة؟ في استطاعتهم أن يكتبوا عني ما يشاؤون ما دمت لا أستطيع أن أقرأ ما هو مكتوب في تلك الورقة. لا أجرؤ أن أطلب منهم أن يأتوا لي بمن يقرأها لي قبل أن أوقعها. قد يعيدونني إلى السجن إذا أنا طلبت منهم ذلك. قال لي شرطي الحراسة:

ـ إنصرف الآن.

خرجت من المكتب ناسياً تعبي وغثياني. عند الباب اصطدمت بشخص. اعتذرت له. دفعني فاصطدمت مع الجدار.

ـ شف قدامك يا هاد الحمار.

تخطاني وانحنيت لأعيد إلى قدمي الفردة التي افلتت. فكرت: لا يمكن أن يسب هكذا، في هذا المكان، سوَى الشرطة.

في الخارج، عقدت سيري حذائي وحزامي. كان يوماً بارداً ومشمساً. تنفست بعمق ومشيت.

في السوق الكبير دخلت مطعماً لبيع البيصر وأنا أفكر في النقود التي تركها لي القندوسي عند صاحب قهوة الرقاصة.

١٢

رنّ جرس المنبه. مددت يدي في الظلام وأوقفته. نهضت وأشعلت الضوء. كانت الخامسة صباحاً. النوم ما زال لذيذاً في عينيّ. بعد ساعة ستدخل الباخرة. نظرت إلى نعيمة النائمة بلا هموم. أكره العيش مع امرأة لا تشغل نفسها بشيء. لا عمل لها سوَى أن تفتح لي أو لغيري فخذيها. بوشتا تزوج فوزية. ربما تظن أنني أيضاً سأتزوجها. كلهن هكذا: لا يكاد الواحد يبدأ العيش مع إحداهن حتّى توقعه في فخ انتفاخ البطن. إنهن لا يتخذن أي احتياط عمداً. لكن ليس لدي ما أخسر. إذا وقعت في فخها فسأهجر هذه المدينة إلى مدينة أخرى وأتركها تسقط في فخها. لبست ثيابي وحملت قفة السلعة. أطفأْ الضوء. خرجت بهدوء.

في الطابق الأسفل غسلت وجهي بماء بارد كالثلج. أيقظت الحارس بحذر. ضرب بيده في الهواء كعادته عندما يكون نائماً ويوقظه أحد، لأنه يشعر أنه دائماً مهاجم. نظر إليّ جاحظ العينين دون أن يتكلم.

ـ عبد السلام. أنا شكري. سأخرج. قم لتقفل الباب.

أرسل شهيقاً ثم نزل من فراشه متعباً. تقدمني وفتح الباب الخارجي. فاحت منه رائحة خمر. قال لي وأنا أخرج:

ـ الله يعاونك.

حييته ومضيت في الدرب الهادئ. صباح بنفسجي. لقد ابتلع الليل البؤس. المحظوظون لا يستيقظون في هذه الساعة للعمل. إنهم الآن كالنفايات في الأمعاء. توقفت في عقبة باب العصا وألقيت نظرة على البحر. إنه هائج قليلاً.

في مرفأ الميناء رأيت بوصوف واقفاً قدام كشك يتناول فنجاناً من البيصرة الساخنة. كان هناك عمال يفطرون وآخرون يدخنون الكيف والسجائر. حييته وطلبت فنجاناً لي. اتفقت معه على أن يعمل معي مقابل ثلاثة آلاف فرنك. قال:

ـ سمعت البارحة أن العنابر ستكون غاصة باليهود المهاجرين إلى فلسطين.

ـ الجنود الفرنسيون والداكاريون الذاهبون إلى الجزائر يهمونني أكثر. إنهم لا يساومون كثيراً في الأثمان. اليهود معظمهم تجار. حتى الذين ليسوا تجاراً يفهمون في التجارة.

ـ لكنهم يغادرون المغرب إلى الأبد ولا بد أن يشتروا بعض الهدايا من آخر مدينة مغربية يقلعون منها.

ـ سنرَى.

مشينا إلى المرفأ ونزلنا إلى الزورق. أخذ يجذف ببطء. تذكرت وهران وذلك الشيخ الذي كان يصرخ في بعتاب: «هيا! انتبه إلى اليمين أيها الريفي الكسول. النوم ما زال في عينيك. سأقول للمسيو سيجوندي أن يأخذك إلى زوجته لتساعدها في قشر البطاطا. أضرب البغلين جيداً. إنك لا تصلح إلاّ لقشر البطاطا وغسل الصحون...» في مثل هذه الساعة كنا نخرج إلى حقل الدوالي لنعمل. كان الشيخ

يثرثر: إن لم يشتمني فإنه يشتم سكة المحراث أو المقوم الذي تنزلق عليه قبضتاه أحياناً من شدة العرق وقبضتاي هما الأخريان تشدان بقوة على زمام البغلين حتّى أحس كأن في راحتي أشواكاً تنغرز. لولا فعلي مع ذلك الغلام الجميل في الحقل لكنت الآن ما زلت في وهران. كنت هناك أتذكر وجه أمي في وجه خالتي. اليوم أدرك جيداً لماذا كانت تعاملني بلطف. لقد كانت بلا أطفال.

قال بوصوف:

ـ انظر، الباخرة تدخل الميناء.

توقف عن التجذيف. انتشل المجذاف ووضع عروته في القائم الآخر. أخذنا نجذف معاً. قال:

ـ الباخرة غاصة بالجنود.

عندما اقتربنا من الباخرة صاح جندي بالفرنسية:

ـ ايه، ماذا عندكما للبيع؟

أشرت للجنود أن ينتظروا. أخرج بوصوف لفة الحبل وهيأه في يده لرميه. صحت فيهم:

ـ أمسكوا الحبل.

امتدت بعض الأيدي لتلقف رأس الحبل المثقل بعدة عقد. رمَى بوصوف رأس الحبل بقوة. أمسكه جندي زنجي. قلت للسينيغالي بالفرنسية:

ـ اربط الحبل جيداً.

صاح بعض الجنود:

ـ هيا، اطلع.

بدأت أتسلق الحبل بخفة. كانت بعض الأصوات تصيح:

ـ ألي، كوراج، برافو!

ـ تري بيان!

ساعدني على القفز إلى سطح الباخرة جندي داكاري. كان بوصوف قد ربط القفة في ذيل الحبل عندما صعدت. بدأت أسحب القفة إلى الباخرة. سألني جندي سينيغالي:

ـ ماذا عندك للبيع أيها الرفيق؟

قلت له دون أن ألتفت إليه:

ـ ساعات سويسرية، شالات، مناديل يابانية وقداحات. ساعدني جندي فرنسي على إنزال القفة وقال:

ـ هيا، أرنا ما عندك.

أخرجت علبة الساعات وتركت الأشياء الأخرى في القفة. قلت لهم:

ـ هذه هي الساعات.

ـ كم هذه؟

ـ خمسة آلاف فرنك.

ـ أليست زائفة؟

ـ لا أبيع ساعات زائفة.

ـ ثلاثة آلاف.

ـ أربعة آلاف.

ـ لا: أعطيك ثلاثة.

ـ خذها، إنها لك.

فكرت: يكفي أن يشتري أحدهم ليصاب الآخرون بهوس الشراء. كانت الساعات تطير من يدي الواحدة تلو الأخرى وجيوبي تمتلىء بالأوراق المالية. عاد إليّ جندي نادم وقال لي:

ـ ردّ لي نقودي وهاك ساعتك.

فكرت: إذا انهزمت أمامه وأعدت له نقوده فيصاب بهوس الندم كل الذين اشتروا من عندي. قلت له:

ـ لماذا؟

ـ قالوا لي بأن ساعتك هذه زائفة.

ـ اسمع، إن الذي قال لك هذا لا يملك ثمناً لشراء مثل ساعتك الجميلة هذه.

ـ ألن ترد لي نقودي؟

ـ كن رجلاً. إنك اشتريتها باختيارك.

تصوبت عشرات العيون تجاهي بريبة. نحنح بعضهم. قال الجندي الفرنسي الأشقر:

ـ طيب، سأحتفظ بها.

انسحبت إلى عنابر اليهود. رائحة قيء ورطوبة. قالت امرأة يهودية بصوت متعب:

ـ ماذا تبيع أيها الولد؟

ـ شالات ومناديل يابانية.

تجمعت حولي يهوديات أخريات. قالت يهودية شابة:

ـ أرنا إذن ما في قفتك.

صاحت أخرَى بفرح إلى جانب أمها:

ـ ماما، كم هو جميل لون هذا الشال!

سألتني أمها عن ثمنه.

ـ ألف فرنك.

ـ سبعمائة.

إذا لم أسرع في البيع سأخسر كل شيء. قال شيخ ذو لحية رمادية مدببة، بطنه بارزة:

ـ إن نسيج هذه الشالات رخيص. يكفي أن تغسل مرة واحدة لتفقد لونها.

التفتت إليه زوجته:

ـ اسكت أنت. هذه أشياء تخص النساء.

أضاف الشيخ:

ـ إنني أعرف جيداً هذه البضاعة التي يبيعها الهنود هنا في طنجة بالجملة.

فكرت: البيع والشراء دائماً صعب مع الشيوخ. إنهم يزعمون، في

غرور، أنهم يعرفون كل شيء.

أخذت النساء اليهوديات يتجمعن حولي ويشترين مني دون أن يأبهن لما يقوله ذلك الشيخ. سمعته يقول لهن: «إنكن حمقاوات. أنتن تشترين أرخص سلعة رأيتها...»

الألوان تطير من يدي وحموضة الروائح تملأ داخلي بالغثيان. سمعت ارتطاماً قوياً. الباخرة ترسو. قبضت ثمن آخر شال وبدأت أنسحب وسط صياحات النساء: «عد إلينا بمزيد من البضاعة».

عندما صعدت إلى السطح صاح جندي سينيغالي في ظهري من بعيد:

ـ ايه أنت! انتظرني هناك!

لا بد أنه يريد أن يرد لي الساعة التي اشتراها مني. رأيت حول رامي حلقة جنود. الملعون، الذي لا يصحو قط من السكر، يبيع لهم الساعات بنصف الثمن الذي بعت لهم به. هذه عادته. قلت له:

ـ أنت دائماً قواد.

قال:

ـ مع من أنت تتكلم؟

ـ مع استك.

ـ عندما نتقابل في المدينة سأريك من أكون.

ـ سأبصق لك في عين مؤخرتك.

اقترب بوصوف بسرعة من الباخرة. ألقيت القفة إلى الزورق. انزلقت في الحبل. راحتاي تنسلخان. انقطع الحبل وهويت في وسط

الزورق. صاح بوصوف:

ـ تفو على هذا البيع والشراء. لقد انشق زورقي.

ـ الجندي السينيغالي، ابن القحبة، هو الذي قطع الحبل.

ـ تفو على خدمة الزب هذه!

ـ جذف بسرعة. سيقذفوننا بأي شيء. ليست هذه أول مرة. إني أعرف هؤلاء الجنود، أولاد الزنا.

صاح بوصوف:

ـ انتبه!

تفادينا زجاجة بيرة فارغة. صاح بوصوف:

ـ امسك أحد الألواح لنحتمي بها.

أمسكت لوحاً. سمعت زنجياً يشتمنا بصوت عال ويخنق أحدنا في الفراغ. إنه بلا شك يخنقني. تلقيت زجاجتين متتابعتين. صرخت:

ـ آي! يدي، يلعن دينهم!

رميت اللوح. طفا بعيداً. لحست جرحي. مضى وقت طويل لم أر فيه دمي يسيل بهذا الألم الحلو. طعمه ملح وسكر في فمي. بدأت أحس بوخزات مؤلمة في مؤخرتي المتنملة. تخلّى بوصوف عن التجذيف. كنا قد ابتعدنا عن الباخرة. وقف. قبض على أسفل بطنه وراح يصيح:

ـ خذوا، شدوا لي في هذا!

ـ كفى. أي جدوَى فيما تفعله الآن. إن التيار ضدنا.

أَخَذْنا نجذف معا. بعد لحظة قال:

ـ لكن ماذا فعلت لهم؟

ـ لا شيء. إن رامي هو سبب كل ما حدث.

ـ ماذا فعل؟

ـ إنه يخفض دائماً أثمان الساعات. سأبول له في استه عندما ألقاه في المدينة.

ـ ألم تتحدث معهم عن الحرب في المغرب والجزائر؟

ـ أبداً. قلت لك إن رامي هو السبب.

ـ ومع اليهود!

ـ قلت لك لم أتكلم عن السياسة مع النصارَى أو مع اليهود. هل تريدني أن أقول للفرنسيين والسينيغاليين ألا يذهبوا إلى الجزائر ولليهود ألا يهاجروا إلى فلسطين؟

التيار يجرفنا والريح تقوَى. انكسر مجذاف بوصوف. بقي في يده نصفه. قال:

ـ تفو! كل هذا من أجل الآلاف الثلاثة.

ـ ليست لومتي.

أخذ الماء ينصب في الزورق مع كل موجة قوية. قلت:

ـ إسمع، تكلف أنت بإفراغ الماء. أنا سأضع المجذاف في المؤخرة لأوجه الزورق في الإتجاه المناسب.

ـ سيجرفنا التيار إلى صخور المنار إذا لم نعرف كيف نسير معه.

ـ سنتدبر أمرنا عندما نقترب من الشاطىء.

ـ إن حياتي مرتبطة بهذا الزورق، وهو ليس زورقي.

ـ لن يجرفنا التيار أبعد من فيلا هارز.

ـ أنت ستريني في تيارات هذا البحر. إنك لا تعرف شيئاً عن هذا.
(أضاف): لكن قل لي، كم ستعوض لي إذا انكسر زورقي أو ضاع؟

ـ سنحاول أن نصل بسلام.

ـ أريد أن أعرف مسبقاً كم سأقبض.

ـ سأعطيك ضعف المبلغ الذي اتفقنا عليه إذا حدث فيه أي عطب.

ـ ستة آلاف.

ـ نعم.

ـ من أجل ستة آلاف...

ارتج الزورق بعنف. سقط إلى الخلف. قبضت على المجذاف وهويت على كتفه اليمنَى ثم على الكتف الأخرَى. صرخ:

ـ جبان! يلعن دينك.

ـ إذا لم تسكت سأقذفك إلى الماء.

ـ يلعن دينك. سترَى فيما بعد عندما نصل.

قبضت بيدي على أسفل بطني وقلت له:

ـ سترضع لي هذا.

كان منهزماً في المقدمة فوق المقعد. فككت حزامي لأربط به المجذاف في مؤخرة الزورق. غافلني وضربني بنصف المجذاف الذي كان قدامه. تفاديت الضربة وسقطت الهراوة من يده. تخانقنا. صعدت له ضربة ركبة إلى أسفل بطنه، ثم دفعته إلى الوراء. أمسكت الهراوة لأهوِي بها عليه. أخذ يصرخ برعب:

ـ لا، أرجوك لا...

شحب لونه وجحظت عيناه من الرعب. قلت له:

ـ إذا لم تكف سأقذفك إلى الماء.

كان المجذاف الآخر يطفو بعيداً عنا. أمسكت الهراوة بيدي اليمنَى وبيدي الأخرى أخذت أفرغ الماء بعلبة من الصفيح. كان الزورق يدور ويدور في مكانه أحياناً. بعد لحظة رميت له العلبة وأمرته:

ـ إنها الآن نوبتك.

أمسك العلبة وطفق يفرغ الماء بهدوء. فكرت في نعيمة: ربما ما زالت تنام. إنها الآن تستريح وتحلم إذا لم تكن قد استيقظت. ما هو بيننا ليس هو الحب. هذا أكيد. العادة هي التي آلفتنا. أشك أني أحب لا مبالاتها. عندما ستصحو ستغتسل وتنزل إلى الطابق الأسفل في ثياب النوم لتثرثر مع الحارس أو مع صاحب المحل الكسيح. إذا أغراها أحد المقيمين في الفندق كي تنام معه فلا أظن أنها سترفض. قالت لي ذات مرة: «أنا لا أفهم الحب إلا في الزواج». قلت لها: «وأنا أخاف أن يموت حبي في الزواج». إن ما يجعلنا نستمر معاً هو أن كلانا ليس ملكاً للآخر كليا. هكذا يظل الشوق بيننا.

كنا نقترب من شاطىء فيلا هارز. الأمواج تعلو وتنكسر. الماء

عكر. كنت قد سمعت من الصيادين أن كلب البحر لا يقترب من المياه العكرة.

تهيأنا لنقفز. قفزت أنا الأول. سبحت تحت الماء حتّى كدت أختنق. رفعت رأسي فوق الماء والتفت ورائي. كان بوصوف يتبعني عن قرب. الأمواج ترفعني عاليا ثم أنحدر معها كأني أسقط في هاوية. فكرت: إنني الآن أحمل موتي فوق كتفي. عندما زرت صديقي مانولو في المستشفى الإسباني سمعته يقول في ألم: «خلصني من هذا العذاب يا رب..» كان مصاباً بمرض قاتل في رئتيه فأراد أن ينتحر، لكنه لم يستطع لأن موته كان محروساً بالراهبات. ابتلعت قليلاً من الماء. يجب ألا أفكر في شيء حتّى لا أغرق. ظللت لحظة أسبح كأني في بئر. استعدت تنفسي. سبرت الغور. لمست قدماي الرمل. وقفت. دفعتني موجة قوية. ابتلعت الماء. خرجت إلى الشاطىء. صحت في بوصوف:

ـ قف على قدميك. إن القد موجود هناك.

انبطحت على الرمل ليهدأ لهاثي. لم أدرِ إذا كان قد سمعني أم لا. ظل يسبح حتّى حافة الشاطىء. الزورق ينقذف بعيداً عنا.

عندما خرج ألقى نظرة على زورقه ثم نظر إليّ بغضب. لم يكن متعباً مثلي. نهضت وفكرت: أنه ينظر إلي الآن كأني خروفه الذي سيشويه. طز في الذي خرأه. إذا خشيته فحتما سأنهزم. سيسلبني كل شيء ويركب على ظهري إذا غلبني. سيتركني هنا عارياً ويذهب. اقترب مني. تراجعت إلى الوراء. قال:

ـ تعالَ لنرَ ما سيحدث للزورق.

مشى أمامي وأنا خلفه على بعد خطوات منه. كان الزورق ينقذف

فوق الرمل. أخذنا نسحبه إلى الرمل بصعوبة، لم أفقد حذري منه. إنه أقوَى. قد يغافلني بضربة تطرحني تحت قدميه. عندما استقر الزورق فوق الرمال قال:

ـ لا بد أن شقوقاً قد حدثت فيه.

ـ أين هي؟ إني لا أرَى أية شقوق.

صرخ بغضب:

ـ أنا الذي أعرف زورقي.

ـ وأنا لست أعور. اسمع، قل لي ماذا تريد الآن؟

ـ هذا يساوي عشرة آلاف فرنك.

ـ لماذا عشرة آلاف؟

ـ أتعطيها أم لا؟

ـ سأعطيك ستة آلاف.

ـ إذن خذ.

تلقيت لكمة على جانب وجهي الأيسر. دارت النجوم في عينيّ. ابتعدت خطوات إلى الوراء لأسترد توازني. هاجمني مثل ثور. إذا تركته يقبض عليّ فسيهرس لي عظامي. ليت كانت معي شفرة حلاقة. كنت سأفعل له مثلما فعلت لكوميرو. راوغته. خبط في الفراغ. بدأ المطر يهض بغزارة. قال:

ـ ولد القحبة! أتحسب نفسك أنك هنا ستعاملني كما فعلت معي في الزورق بالمجذاف. هنا ستخرأ كل ما أكلته.

ظللت أراوغه بصمت وهو يطلب مني بحركات يديه وجسمه كله وصوته الصارخ أن أقترب منه أن كنت شجاعاً. لن أستهلك طاقتي. سأتركه يهجم. أخذ يضحك ويداه تلحان في الالتحام بي. قال:

ـ أنك جبان. من سينقذك مني الآن؟

بقيت صامتاً حذراً من أن يغافلني بهجوم يقبضني فيه. ارتمَى بسرعة على أسفل بطني. ضبطته من عنقه بيدي معاً. صعدت له بركبتي اليمنى ضربة تقليدية إلى وجهه. رفع وجهه. لم يندم. نطحته. أفلت. سددت له لكمتين على أنفه ثم واحدة على عينه اليسرَى. الأحمر ينزف من أنفه وأخمص قدمه اليمنَى. تقوس صارخاً ثم سقط قابضاً على قدمه. رأيت شظية زجاجة مغروسة في الرمل كخرشوفة شوكية. كان جرحه عميقاً حتَّى العظام. بان الشحم النازف، اقشعر جسدي. ثم لم أدر لماذا تبدل شعوري فراقني منظر الدم الذي ينزف ويمتصه الرمل والأمطار تغزر. بدا لي المطر مثل عروق تنزف. تذكرت منظر الكبش في الريف حينما ذبحوه ووضعوا طاسا تحت حنجرته الفائرة حتَّى امتلأ ثم شربته أمي المريضة. عددت ستة آلاف فرنك مبللًه. نفضتها ورميتها له قدامه. . استدرت ومشيت. سمعته يقول:

ـ عد يا ابن القحبة. سأبصق لك في مؤخرتك إذا أنت عدت.

فكرت أن أعود وأخنقه. المطر الغزير يهدىء أعصابي وأنا ماض وهو يسب.

عندما اقتربت من الطريق رأيت حافلة المنار آتية. رفعت يدي. توقفت. صعدت ودفعت للمحصل ورقة ألف فرنك مبللة. قال:

ـ مالك؟ هل حدث لك شيء؟

ـ لا بأس.

التفت إليّ كل ركاب الحافلة البدويين. كانوا سبعة أو ثمانية. نظرت من خلال النافذة إلى الشاطىء. رأيته يتجه نحو الزورق وهو يعرج.

نزلت من الحافلة في السوق الكبير. أثار منظري المبلل انتباه كثيرين من المارة. قالت امرأة لزميلتها تحت مظلة صغيرة مزوقة وهما ماشيتان ورائي:

ـ مسكين هذا الشاب!

قالت رفيقتها:

ـ لا بد أن تكون قد حدثت له مصيبة.

وجدت في قاعة الفندق الحارس يتبادل بعض النكات مع المرأة المنظفة. كانت تغسل الأرض. تركت الجفاف من يدها وسألاني معاً عما حدث لي. قلت لهما بأني تبللت بالمطر وصعدت إلى غرفتي. وجدت باب الغرفة مفتوحاً. الأشياء لم تعد في مكانها. القحبة بنت القحبة لعبت دورها معي. أخذت معها كل ما هو مهم: راديو ترانزيستور، المنبه، خمس ساعات يد ودزينة من القداحات.

هبطت إلى القاعة وسألت الحارس:

ـ ألم تر نعيمة حين خرجت؟

ـ كلا. هل حدث شيء؟

ـ لا شيء. أعتقد أنها ذهبت نهائياً دون أن تنتظرني لتقول لي وداعاً.

ـ ألم يحدث شيء؟

هززت له رأسي بالنفي. ثم عدت إلى غرفتي لأغير ملابسي وأيبس أوراقي المالية. لقد تركت لي ثيابي. ربما ستبدأ حياتها مع عشيق آخر في مكان ما كما كانت مع حميد الزيلاشي وقبل أن تكون معه. شيء قذر، لكن لا بد منه مع أمثالها.

١٣

في ذلك المساء، جئت إلى مقهى «سي موح» حاملاً معي مجلة مصرية مختصة في نشر أخبار الممثلين العرب وصورهم. كنت أشتري هذا النوع من المجلات لكي أتفرج على صور الممثلات بلباس الرقص الشرقي. أحياناً كنت أستمني على بعض صور الراقصات المثيرة للجنس. كان عبد المالك ـ أخو حميد ـ هو الذي يقرأ لي هذه المجلات حين يروق له مزاجه. أحياناً كنت أدفع ثمن فطوره أو غدائه. كان قد هجر دراسته في تطوان وجاء إلى طنجة ليتصعلك بعيداً عن أهله في أصيلة. أفضل رواد المقهى يكتب اسمه بصعوبة. كنا نعتبره أهم شخص يتردد على المقهى. يقرأ لنا الصحف والمجلات الشرقية العربية بصوت قوي وواضح. حين يكون يقرأ موضوعاً سياسياً هاماً عن أحدى الدول العربية يسكت صاحب المقهى الراديو ويصغي كل الرواد إلى ما يقرأه ويشرحه بأهتمام كبير. أحياناً كان ينتصب واقفاً ويترك الصحيفة أو المجلة من يده ويتحول شرحه إلى خطبة سياسية، يستعرض فيها ثقافته وذكاءه في تحليل الأحداث ويستشهد كثيراً بآيات من القرآن وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة (كان قد حفظ القرآن عن ظهر قلب في صباه). حين يطلب منه أحدهم شرحاً أكثر وضوحاً لاحدَى الأفكار يجد الفرصة ليتعالى علينا، نحن الأميين، الجهلاء، فيزداد شرحه غموضاً. كان دائماً على صواب في نظرنا. لم يكن بعض

الرواد يفرقون دائماً بين قوله وقول الله. كثيراً ما يقول أحدهم: صدق الله العظيم فيصحح له عبد المالك: «أستغفر الله العظيم، هذا ليس قول الله، إنما هو قولي..» أثناء حديثه غالباً ما كان أحدهم يقاطع كلامه مادا له «سبسيا» من الكيف. يتوقف لحظة عن الكلام ليدخن واقفاً ويرشف جرعة أو جرعتين من الشاي الأخضر ثم يستأنف خطبته المعجزة. عندما ينتهي يتلقى تهانىء الرواد ويكون صاحب المقهَى قد هيأ له كأساً من الشاي المنعنع وشطيرة من الخبز مزبدة. في بعض الليالي أدعوه للعشاء معي في أحد مطاعم السوق الداخلي ثم ندخل احدَى حاناته لنسكر أو نذهب مباشرة إلى الماخور لنبيت مع بغيين. (كانت لديه أيضاً نزعة غلامية مكبوتة إذ كثيراً ما حدثني عن جمال الذكورة الذي يفوق جمال الأنوثة). كنت فخوراً أن يصاحبني شخص مثقف مثله. كان يجيبني عن كل الأسئلة (لم اكن أدري ان كان على صواب أو على خطأ، فالله أعلم). كل ما أذكره هو أنني لم أكن أفهم منه إلاّ القليل.

كان جالساً معه في ذلك المساء كريدا والمساري والعجوز عفيونة، بائع الكيف ومعجون الحشيش في المقهَى. طلبت من السي موح كأس قهوة سوداء قوية واشتريت خمس بسيطات من الكيف. كنت مهموماً، وكانوا هم يتحدثون عن الملك فاروق ومحمد نجيب وسياسة جمال عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو. كنت راغباً في مشاركتهم الحديث. دخنت السبسي الأول. حشوت السبسي الثاني ومددته إلى كريدا الذي رفضه. قال لي عبد المالك وأنا أمد له السبسي:

ـ احتفظ بكيفك. عندنا كفاية من الكيف.

فكرت مع نفسي: وحين لا يكون عندك الكفاية منه إلى من تلجأ

أيها المفلس؟ ألا تطلب مني أن أشتري لك لفة منه؟ قال لي المساري:

ـ دعنا نتحدث بلا مضايقات.

أولاد القحاب. كلهم ضدي اليوم. أنهم يتكبرون. لست اذن في مستواهم في هذا اليوم. حتَّى عبد المالك يهينني هكذا. كنت أدخن السبسي تلو الآخر مفكراً في الانتقام. وضع السي موح كأس قهوتي فوق طاولتي. اشتريت من عفيونة قطعتين من المعجون وأكلتها ثم شربت جرعات من قهوتي الساخنة حتَّى يكون المفعول جيداً. دخل كمال التركي سكران. دعوته أن يجلس معي فرفض. انحنى عليّ وهمس لي بالفرنسية:

ـ معي نصف زجاجة ويسكي. سأصعد إلى السطح. اتبعني إذا كنت راغباً أن تشربها معي.

وافقت بهزة من رأسي. رشفت من قهوتي عدة رشفات وتبعته حاملاً معي السبسي والكيف. وجدته يشرب من فم الزجاجة ناظراً إلى البحر الذي أتَى منه منذ شهور في باخرة تركية نزل منها ورفض أن يعود إليها. أعطيته علبة الكيف والسبسي ليعمر بنفسه. أعطاني الزجاجة. شربت جرعتين..

ـ كيف هي أحوالك؟

ـ ما زلت أنتظر أن ترسل لي أسرتي النقود لأعود إلى استانبول.

ـ والمركب الذي تركته، هل ستعود لتعمل فيه؟

ـ المراكب كثيرة، سأبحث عن مركب آخر.

ظللنا نشرب وندخن ونتكلم عن همومنا حتَّى فرغت الزجاجة.

سألته:

ـ ماذا ستفعل هذه الليلة؟

ـ لا أدري.

أخفَى الزجاجة الفارغة تحت سترته وهبطنا. وجدنا عبد المالك واقفاً كعادته يعلق على الأخبار التي تذيعها اذاعة لندن بالعربية في المساء. كان كأس قهوتي والمجلة المصرية المصورة ما زالا فوق طاولتي. جلست وعرضت على كمال أن يشرب معي شيئاً. اعتذر قائلاً:

ـ لي موعد مع محمود المصري في مقهَى دار الدباغ. (هذا أيضاً كان يقوم بنفس دور عبد المالك). سيسلف لي بعض النقود.

قال له السي موح:

ـ لا أريد السكارى في قهوتي.

قال له كمال بالعربية:

ـ السلام. السلام يا السي موح.

ضحكت. ودعني باشارة من يده وخرج. نظر إليّ عبد المالك غاضباً وجلس. قال له عفيونة:

ـ استمر في كلامك يا السي عبد المالك.

قال عبد المالك:

ـ كيف تريدني أن أستمر في الكلام والأولاد يضحكون؟

قلت له:

ـ أنا لست ولداً. أنت تتكلم عن محمد نجيب وجمال عبد الناصر كأنك تقابلهما كل يوم ويتحدثان إليك عن أسرارهما السياسية. من

أين تعرف كل هذه الأخبار عنهما؟

فقد السيطرة على أعصابه وقال غاضباً:

ـ أسكت يا هذا الأمي. أنك لا تعرف حتًى كيف تكتب اسمك وتريد أن تحشر نفسك في الموضوع.

قال له المساري:

ـ لا تهتم به. أنه سكران.

هذه فرصتي لأهين عبد المالك وأنصاره كما أهانني هو وجماعته. فكرت في كلمات أهينه بها. لم أعرف ما أقوله له. رأسي ثقيل بالكيف والمعجون والويسكي. سأطلب منه أن نخرج لنتضارب. هذه هي أسهل وسيلة لا تتطلب أي مجهود في التفكير. قلت له:

ـ أنا أمي وجاهل، لكنك أنت كذاب. أفضل لي أن أكون أمياً وجاهلاً من أن أكون كذاباً مثلك.

أحسست أني انتصرت عليه. قال:

ـ أمشي تقود النصارَى في البورديل.

قلت له:

ـ إذا كانت عندك أخت جميلة فقل لها أن تجيئني لأقودها.

قال لي السي موح بغضب:

ـ أنا لا أريد الصداع في قهوتي. اخرجا برّا وتضاربا.

قلت له:

ـ لماذا تخاطبني أنا وحدي؟ أم أنه هو يعرف كيف يتكلم وأنا لا أعرف؟

قال لي كريدا:

ـ العن الشيطان.

قلت له:

ـ الشيطان هو الانسان.

ثم قلت لعبد المالك:

ـ اسمع، لنخرج إلى الشارع لأريك من هو الأمي والقواد.

نهض بسرعة واتجه إليّ. اعترضه كريدا والمساري وعفيونة. دفعهم عنه. قمت وأمسكت كأس قهوتي وقذفت محتواه على وجهه. غطّى وجهه بيديه وأمسكني شخص من ساعدي من الخلف. صرخت في وجهه:

ـ لنخرج برّا إذا كنت رجلاً.

أطلقني الشخص الذي أمسكني من ساعدي وقال لي كريدا:

ـ كن عاقلاً.

قلت له:

ـ ماذا يحسب نفسه هنا؟ أنه مجرد طالب هارب من دراسته وجاء إلى طنجة ليتسكع.

عدت إلى مكاني وجلس معي عفيونة. عمر السبسي وأشعله لي ورجاني أن أهدأ.

صعد كريدا والمساري إلى السطح. دخنت. سعلت. من خلال بعض التعليقات التي سمعتها من الرواد أدركت أن بعضهم يتحدثون لصالحي. لا بد اذن أن يكونوا قد سبق لهم أن شعروا بنفس المشاعر العدوانية ضد عبد المالك. هبطوا من السطح. كان وجه عبد المالك يبدو كما لو أنه غسله بماء ساخن. اقترب مني كريدا وقال:

ـ أطلب منك أن تتصالح معه.

قال عفيونة:

ـ نعم، قم وتصالح معه من أجلنا.

نهضت معهما. دفعونا لنتعانق. أردت أن أرجع إلى مكاني. لكنهم رحبوا بي كي أجلس معهم. دخل كمال يترنح. حول عينه اليسرى هالة بنفسجية. قال لي:

ـ هاجمني اثنان في بورديل بن شرقي.

ـ لماذا؟

ـ لقد اعتبروني نصرانياً. لم يصدقوا أنني مسلم، قالا لي: «كيف تكون مسلماً وأنت لا تتكلم العربية»؟

ـ لكن لماذا كل هذا؟

ـ كنت أريد أن أدخل مع فتاة مغربية لكي أنام معها.

ـ أجلس معنا.

ـ أفضل تعال أنت معي. سنذهب إلى السوق الداخلي لنشرب قليلاً من النبيذ. لقد سلف لي محمود المصري بعض النقود.

اعتذرت لجماعة عبد المالك وخرجت مع كمال.

دخلنا دار السعدية الكحلا. قلت له:

ـ أعرف جيداً صاحبة الدار وفتياتها. لاتخش من شيء.

استقبلتنا خديجة السريفية. أدخلتنا حجرة مفروشة بأثاث مغربي. سألتني عما نريده. جاءت صاحبة الدار وقدمت لها كمال. قال لها بالعربية:

ـ السلام يا مدام.

سألتني:

ـ هل صاحبك مسلم؟

ـ طبعاً هو مسلم.

ـ يتكلم بالعربية؟

ـ كلا. يعرف فقط بعض الكلمات. إنه تركي.

تساءلت:

ـ كيف يكون مسلماً وهو لا يتكلم العربية؟

شرحت لها أن هناك بعض الشعوب لا تتكلم العربية، لكنها مسلمة مثلنا. قال لها كمال بالعربية:

ـ أنا مسلم. الله ومحمد رسول الله.

ابتسمت السعدية. قالت لنا:

ـ أجلسا. هل تريدان أن تبقى معكما خديجة؟

أحلت السؤال على كمال. قال:

ـ طبعاً ستبقى. وقل لها أن تأتينا بفتاة أخرى جميلة مثلها.

طلبنا زجاجة كونياك وزجاجة صودا. طلبت من خديجة أن تختار لنا فتاة أخرى. خرجت وسألت كمال:

ـ أتعجبك حقيقة أم نختار غيرها؟ هناك كثيرات أجمل منها إذا شئت.

ـ إنها رائعة. الفتيات المغربيات يشبهن كثيراً الفتيات التركيات.

جاءتنا خديجة حاملة صينية الشراب تتبعها صفية القصرية. كنت أعرفها. قالت لي:

ـ أهلاً بالغزال.

قدمت لها كمال وجلست إلى جانبه. قالت لي خديجة: ثمن الشراب مائة وخمس وعشرون بسيطة.

قلت لها:

ـ وإذا أضفنا ثمن المبيت معكما أنت وصفية؟

قالت باسمة ناظرة إلى صفية:

ـ ثلاثمائة بسيطة.

أخرج كمال ورقتين من فئة مائة بسيطة. طلبت من خديجة أن تنادي على للا السعدية. قالت:

ـ هات الفلوس. ألا تثق بي؟

ـ ليس الأمر كذلك. إنني أريد أن أتفاهم مع للا السعدية.

قالت ضاحكة:

ـ فهمت. أنت تعرف شغلك معها.

رجوتها أن تجلس وخرجت. كانت لالا السعدية جالسة في أقصَى وسط الدار. دفعت لها مائتي وخمسين بسيطة. أفهمتني أننا سننام كلنا في غرفة واحدة.

وجدت كمال يبوس صفية ماسكاً وجهها بين يديه كأنه يخاف أن تفلت منه. ربما سأنام أنا أيضاً ذات يوم مع فتاة تركية. لففت خمسين بسيطة ودسستها في يد خديجة:

ـ لقد تفاهمت مع صاحبة الدار.

دستها في صدرها وباستني على خدي.

كنت قد غفوت عندما هزتني خديجة:

ـ هل تسمع؟ صفية تقول بأن صاحبك التركي يلحس لها شيئها.

ـ ليفعل معها ما يشاء.

ـ ألم تقل بأنه مسلم؟

ـ وماذا في ذلك؟

قالت صفية:

ـ اللحس باللسان أفضل.

كنت سأستيقظ في السادسة صباحاً لأذهب إلى الميناء. رجوت خديجة أن تتركني أنام. أكدت لي أنها ستوقظني في أي وقت أشاء. ضمتني إليها وأدخلت فخذيها بين فخذي وبدأت تحك فرجها مع

ركبتي اليمنَى المثنية. إنها تتخيل فخذي كأنها شيء الحصان. صفية تتنهَّد وخديجة تناضل مع ركبتي. تشد شعري بقوة. دفعت فرجها عدة مرات في ركبتي ثم تراخت. كمال وصفية يضحكان. انقلبت خديجة ونامت على بطنها. مددت يدي ونزهتها فوقها. كانت ما زالت تحك ببطء مع الفراش. ركبت على ظهرها لأسافر. حاولت أن تسقطني من فوق سنمها. تمسكت جيداً بشعرها حتَّى لا أسقط في الفراغ. كانت ناقة تطير فوق صحراء. السقوط من فوقها هو ضياعي في صحراء مجهولة.

في الصباح، بعد صعودي من الميناء، ذهبت إلى مكتبة في واد أحرضان واشتريت كتاباً لتعلم مبادىء القراءة والكتابة بالعربية.

وجدت عبد المالك في المقهَى. قدم لي أخاه حسن الذي جاء من العرائش ليزوره. اعتذرت له عما حدث لي معه أمس. قال:

ـ انس ما حدث. أنا أيضاً كنت متوتراً.

جلست معهما. أريت لعبد المالك الكتاب الذي اشتريته وقلت له:

ـ لا بد لي من أن أتعلم القراءة والكتابة. أخوك حميد كان قد علمني في مخفر الشرطة الجنائية بعض الحروف وقال لي بأن عندي استعداداً للتعلم.

ـ ولماذا لا؟

قال لي أخوه حسن:

ـ هل تريد أن تذهب إلى العرائش لتدرس هناك؟

قلت له بدهشة:

ـ أنـا؟ كيف يمكن لي ذلك. أن لي عشرين سنـة، ولا أعـرف حتَّى كيف أوقع اسمي.

ـ لا يهم. أنا أعرف هناك مدير مدرسة. سأكتب لك رسالـة وصية لتحملها معك إليه. أنا متـأكد أنـه سيقبلك. إنه يعـطف على الغـرباء الذين يرغبون في الدراسة بجد. (أضاف): لو لم أكن ذاهباً إلى تطوان لتسوية مشكل لي هناك مع النائب الإقليمي لصحبتني وقـدمتك بنفسي إلى مدير تلك المدرسة. إنه صديقي.

بعد لحظة قال لي:

ـ اذهب وأشر ورقة وظرفاً لأكتب لك الرسالة.

خـرجت دون أن أصدق مـا قـالـه لي. اشـتريت مـا طلبـه وعـدت بسرعـة. أخذ مني الـورقة ووضعهـا فوق جـريدة عـربية وأخـذ يكتب بخط جميل. كان يكتب ويتوقف ليدخن معنا الكيف. حينما انتهَى من كتابتها وضعها في الظرف وأقفله. أعطاني الرسـالة ووضعتهـا في جيب كبوطي. سألته:

ـ متَى يمكن لي أن أسافر إلى العرائش؟

ـ متَى شئت. لكن حاول أن تذهب في هذه الأيام.

كـانت حوالي الثـانيـة عشرة زوالاً حينـما ودعنـا حسن ليسـافـر إلى تطوان. أكد عليّ وهو يصافحني:

ـ سنلتقي هناك بعد ثلاثة أو أربعة أيام. لابد أن تذهب.

خرج وقال لي عبد المالك:

ـ أنا سأذهب إلى مقبرة بوعرقية.

ـ لماذا؟

ـ لقد كلفني هنا في المقهَى بعض الأخوان لأقرأ مـا تيسر من القرآن الكريم على قبور عائلاتهم.

ـ سأصحبك. (أضفت): لي أخ مدفون هنـاك، هل يمكن لـك أن تقرأ على روحه سورة؟

ـ أخوك؟

ـ نعم، لي أخ هناك.

في الطريق سألته:

ـ ماذا حدث لأخيك حسن؟

ـ لقد ارتكب حماقـة: طردوه من المعهـد في العرائش لأنهم وجـدوه يشرب الخمـر ويدخن الكيف في غـرفة داخـل مسجد يسمـح للطلبـة الغرباء أن يقيموا فيها مجاناً. (أضـاف): إنه دائـماً يقترف مثـل هذه الحماقات.

في السـوق الكبير، اشـتريت باقـة من الـزهـور وعنـد بـاب المقـبرة اشتريت باقة من الريحـان. وجدنـا هناك بعض حـفـظة القرآن يقـرأون سوراً على بعض القبور وزواراً يترحـمون على مـوتاهم. كنـا نتمشّى بين القبور عندما سألته:

ـ هل تعرف مكان كل القبور التي ستقرأ عليها السور؟

ـ كلا. المهم هو النيـة. لا يهم أن أقف قدام قـبر معين لأقـرأ رغم أني أعرف بعضـها. وأنت أين قبر أخيك؟

نظرت نحو السور الذي دفن قربه أخي وقلت له:

ـ هناك. لا يمكن العثور عليه. إننا لم نبن له قبراً قبل أن نرحل إلى تـطوان. كنا فقراء.

ـ سأقرأ عليه سورة ياسين.

توقف فوق ربوة وراح يقرأ على أهل الـرفاق الـذين كلفوه. عنـدما انتهَى توجهنا نحو المكان الذي دفن فيه قبر أخي. قلت له:

ـ هنا. قرب هذا المكان.

أخذ يقرأ. أثناء قراءته كنت أنثر الزهور والـريحان عـلى بعض القبور وعلى الأرض غير المقبرة بعد. كان مدفـوناً هنـاك. ربما تحت قـدمي أو تحت قدمي عبد المالك أو في مكـان ما. فجـأة فكرت. لكن لمـاذا هذه القراءة على قبر أخي المجهول؟ إنه لم يذنب. لم يعش سوَى مرضـه ثم قتله أبي. تذكرت قول الشيخ الذي دفنه: «أخوك الآن مع الملائكة».

أخي صار ملاكاً. وأنا؟ سأكون شيطاناً، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين.

لقد فاتني أن أكون ملاكاً.